المجموعة الفائزة بمنحة الصندوق العربي للثقافة والفنون ٢٠١٨م

AYMNBIK

أين أشيائي

قصص

أيمن بيك

دار اكتب

أين أشيائي؟

أين أشيائي؟

أيمن بيك
الطبعة الأولى , القاهرة 2018 م
غلاف: أيمن بيك
لوحة الغلاف: وئام حمزة
تدقيق لغوي: خالد رجب عواد
رقم الإيداع: 15189 /2018
I.S.B.N: 978-977-488-580 -8

أين أشيائي؟

قصص

أيمن بيك

دار اكتب للنشر والتوزيع

المجموعة القصصية الفائزة بمنحة الصندوق العربي

للثقافة والفنون – آفاق (لبنان)

2018م

الإهداء

إلى روح العزيز
والدي الأستاذ محمد عبد السلام

أولًا

هذه مجموعة من القصص القصيرة، كتبتُها خلال فترة ممتدة ما بين عامي **2012** و**2017** وكنت أنشرُها على الفيس بوك من خلال صفحتي الشخصية، وعلى مدى سنوات كتابة هذه القصص كنتُ أداوم على نشرها في فترات بحيث إن كل قصة تأخذ حقَّها في القراءة والنقد.

لم تكن هذه المجموعة تحمل أي اسم، ليس بسبب أنها نزلت متفرقة، لكني لم أكن أفكر في نشرها بصورة جدية، لكن اسم أين أشيائي جاء بسبب محادثة بيني وصديق، أرسل إليَّ يسألني عن إحدى قصصي التي قابلته ذات يوم، وأعجبته، إلا أنه الآن لا يجدها، بسبب أن الفيس بوك لا يعرف ما يعجبك وما لا يعجبك، إنه فقط يقوم بدفن المنشورات القديمة مهما تفاعَلَ معها الناس، لذلك يصعب العثور عليها بطريقة سريعة، ففكرت أن أجمع ما أكتبُ في شكل **Notes** محفوظة ليسهل العثور عليها، واخترت لها اسمها مستوحًى من سؤال الصديق الذي

سألني عن أشيائي، فأسميتُها أين أشيائي، وهذا الاسم لا يدل على قصة أو نص داخل المجموعة.

هذه المجموعة ستضحكك أحيانًا، وتغضبك جدًّا أحيانًا أخرى، أشكُّ أن الغضب سيغلب على الضحك، فبعض ما تناولته داخل هذا الكتاب يعدُّ ضربًا مبرحًا لبعض السائد والمعتاد، لذلك ربما سأكون سعيدًا إن تحوَّل هذا الغضب إلى نقد مفيد.

إن السبب الذي حثَّني على الإسراع وجعلني أجمع القصص في كتاب واحد، هو ما بدا أنه مثل التجني على كتاباتي قد بدأ يحدث، كنت أحيانًا أجد قصصي مذيلة بأسماء أشخاص آخرين، وفي كثير من المرات كانت تبدو وكأنها قصص قد كتبها شبحٌ مجهول وكتب مكان اسمه (منقول).

وفي أحيان أخرى كنت أجد أن النهاية ليست كما كتبتُها أنا، قام أحدهم بتغييرها لتناسب مزاجه، أو مزاج أعضاء الجروب الذي سينشرها فيه، فكانت تدور في هذا العالم الإسفيري ثم تصلني مشوهة تمامًا، لذلك كان عليَّ أن أقوم بخطوة لحفظ ملكيتي الفكرية لهذه القصص، وعدَّلت الكثير من الأشياء، فبعض القصص كانت أحداثها ساذجة، كنت أحدث نفسي: أنا أكتب الكثير من الهراء، لكن ليس لهذه الدرجة، أعدتُ النظر في بعض القصص، عدلتُ بعض النهايات التي لا تصلح أن تنشر في هذا الكتاب، وحذفتُ بعض القصص، ذلك لن يؤثر كثيرًا حسب ما أرى، إنما أحسبه زيادة ولو بسيطة في وعي النقد عندي، ولا بأس.

أنا ونون

أنا ونون وُلدنا في ذات المستشفى، وفي ذات التوقيت، حتى أن صرخاتنا جاءت متزامنة وبذات النبرة، وقد كان لنا ذات الوزن واللون والطول، وهذا يوحي بأننا متساويان، لكن الأمر ليس كذلك، فعندما أخذتنا الممرضة؛ إلى غرفة العناية بالأطفال حديثي الولادة، وضعت نون داخل حضانة جديدة، أما أنا فقد وضعتني داخل حضانة بالية، بصعوبةٍ استطعتُ التنفس داخلها.

والأمر واضح لا يحتاج لكثير من التفسير، فوالد نون كان من أصحاب النفوذ والمال واليد الواصلة، ومدير المستشفى يضع له ألف حساب، أما والدي فلم يكن إلا رجلًا بسيطًا ومات بعد ولادتي بعدة أشهر، فلا أحد يضع اعتبارًا له أو لعائلته، ولكني نشأت أومن أن الحياة مليئة بالفرص، وإن أخذتْ شيئًا باليمين أعطتك شيئًا آخر باليسار.

كنا نسكن بيتًا متواضعًا تحت ظِلِّ فيلا والد نون، لم أكن أراها كثيرًا فقد كانت لا تخرج للعب مع بقية الصغار، إنما تكتفي باللعب داخل البيت مع الكثير من الألعاب الفاخرة والهدايا اليومية التي لا تنقطع.

ثم شاءت المصادفات أن ندخل ذات الروضة، وسبب أن مديرة الروضة وافقت على تسجيلي هو أن أمي تعهدت أن تنظف بيت المديرة يوميًا بلا مقابل، وأن تغسل ملابسها وملابس أسرتها ثم تعد لهم طعام العشاء، فكرت المديرة لدقائق قبل أن تمسك قلم الحبر وتُدوِّن اسمي داخل الدفتر، أما نون فلم تحتج لكثير عناء، ما إن وصلت إلى مكتب المديرة هي وخادمتها حتى قامت المديرة لاستقبالها ثم سألتها عن والدها، لكن نون لم تُجِب، بل ظلت ساكتة وساهمة، وذلك لم يغضب المديرة، ودونت اسمها في الدفتر على الفور.

كنا في الروضة في ذات الصف، وساعتها بدأتُ ألاحظ أن الفتاة الغنية كانت غبية، لا تجيد الحساب ولا تتذكر الحروف التي حفظتها قبل يومين، حتى أنه عندما يسألها أحد عن اسمها كانت تقف محدقة إليه دون أن تنطق بكلمة واحدة، وما تلبث أن تسيل سوائلها اللزجة لتملأ فمها الصغير، ومن أجل ذلك كانت خادمتها التي لا تفارقها أبدًا تداهمها بالمنديل لتعيد إليها ترتيبها الأول.

وعندما حان الوقت لدخول المدرسة حصلت على منحة مجانية، وذلك لأن المديرة رشحتني عبر ورق رسمي للمدارس النموذجية، وقد تم

قبولي وأرسل إليّ المدير برقية تهنئة، لم أنم ليلتها، وظللت حتى الصباح أتلقى التهاني من الجيران، كانت كل سيدة تدخل علينا وفي يدها طبق من الفطير المُحلَّى بالسكر، وقارورة حليب مثلجة ومطعمة.

كنت كلما أنظر إلى أمي وهي تحكي للنسوة عن اجتهادي رأيتُ داخل عينيها فخرًا كبيرًا، فكنت أزداد سعادة، وأدركُ أن كل ذلك التعب والمجهود في خدمة المديرة بلا مقابل لم يضع سُدًى، وازداد يقيني أن الحياة عادلة لا شك.

وفي أول يوم لي في المدرسة تفاجأت بنون وهي تجلس على يميني، في مكان استراتيجي قرب الشباك، يا للهول! كيف لهذه البليدة أن تدخل إلى هذه المدرسة النموذجية؟! لم تكن تجيد الحساب حتى، وبعد دقائق جاءت خادمتها وأعطتها الكثير من السندوتشات وذهبت.

ثم توالت السنوات، وكانت الحياة في كل مرة تأخذ مني شيئًا ولا ترد غيره، حتى أنها أخذت أمي ذات مساء حار فانتقلت للعيش مع عمتي المتزمتة، وبدأ إيماني بعدالة الحياة ينعدم شيئًا فشيئًا.

في امتحانات القبول للجامعة أحرزتُ معدلًا عاليًا، وتم قبولي في أفضل جامعة محلية في كلية الطب، وبذلك حققتُ حلم أمي التي لم تره يتحقق في حياتها، ولكن ما صدمني حقيقة هو أنني قابلت نون داخل حرم الجامعة، كانت قد تغيرت تمامًا، تمشي بلا خادمتها ولا تحمل السندوتشات، وكذلك هناك أمر قد طرأ، لقد أصبحت نون جميلة

ولونها تغير ولم يعد مثل لوني، إنها جميلة للحد الذي لا يوصف، لكن هل ما تزال غبية؟

ذهبتُ إليها ثم ظللتُ واقفًا لساعة أحاولُ تذكيرها من أكون، وبعد جهد تذكرتني، ولكنها كانت قد نسيت اسمي، وكنت الآن قد فهمت كل شيء، وعرفت كيف لها أن تصل الى هذا الحد رغم ضآلة عقلها وغبائها، رغم ذلك سألتها: "ما كانت نسبتك في امتحانات القبول؟"

أصابها الحرج ولكنها أجابت عن السؤال: "لقد أحرزت **50** في المئة "

قلتُ متصنعًا الاندهاش: "يا للهول! وكيف لك أن تدرسي في هذه الجامعة، ماذا تدرسين، تطريز؟"

ويبدو أنها قد فهمت ما أرمي اليه فقالت بثقة: "أنا أدرس الطب يا أستاذ، ووالدي لديه أسهم في هذه الجامعة، فأضافوا إلى نسبتي **43** في المئة، وبذلك أصبحت أستحق القبول".

ثم ذهبت نون وتركتني محتارًا، كيف لهذه المحظوظة أن تحظى بأبٍ كهذا! وكيف لهذا الأب أن يكون بهذا النفوذ المقزز!

ثم تخرجنا، وشاركنا في مظاهرات تغيير النظام، ورحل كل أولئك اللصوص عن سُدة الحكم، وعادت أرضنا حرة من جديد وكذلك عُدنا أحرارًا، وعادت الخدمة المدنية إلى مجدها الأول، ولم يعد هناك من يُعيَّن

بالواسطة، كانت الكفاءات هي من تسيطر فقط لا أحد سواها، وعادت الجيوش إلى ثكناتها وهدأت الأوضاع.

ومرت عدة سنوات قبل أن ألتحق بأفضل مستشفى في العاصمة، هناك حيث يجد المرضى كل الرعاية اللازمة، ونجد نحن ما نحتاجه من أدوات للعمل، ومبلغًا محترمًا من المال آخر كل شهر.

في أحد الأيام بينما كنتُ خارجًا من إحدى غرف المرضى قابلتني نون أمام الباب، لم تكن مندهشة عندما رأتني، واكتفت فقط بابتسامة جميلة، قلت لها: "ما الذي أتى بك إلى هنا؟ هل أنت مريضة؟"

ضحكت، ثم أخرجت السماعات من جيب سترتها ورفعتها أمامي، ثم وضعتها على أذنها وقرَّبتها إلى صدري، كان قلبي ينبض بعنف، كطبول أوكلوا ضربها إلى رجل مجنون، ضحكت مجددًا وقالت: "أنت تحتاج إلى عناية يا دكتور."

قلت "هل عيَّنوك طبيبة هنا؟"

ضحكت وقالت: "أنا نائب المدير يا عزيزي. "

ثم مضت في طريقها.

جلستُ فعليًّا على الأرض، لم أعد أحسُّ بقدمي وقد أُصبت بالحيرة، هذه البنت، كيف لها أن تفعل كل هذا! والدها هذا يفعل كل شيء، هل هو إله أم ماذا ابن الملعونة؟ تبًّا له، لقد خرق كل قوانين

الكون من أجل ابنته، أما أنا فقد تعبتُ لأَصِلَ إلى هنا، هذه الحياة قاسية بالفعل، الحياة لا تعطيك، هذه محض أكذوبة، إنها تأخذ فقط، وما تفعله أنت لا يعدو أن يكون جهادًا من أجل النجاة، إن من يعطيك حقًّا هو النفوذ، نفوذ والدك كمثال.

عملنا أنا ونون داخل المستشفى لسنتين، جلسنا معًا مرات كثيرة، شربنا القهوة والشاي وضحكنا، ثم ما لبث أن أصبحنا صديقين، ثم عاشقين، ثم تقدمتُ لخطبتها.

وجلستُ أخيرًا أمام والدها، ذلك الرجل الأسطوري الذي لم أجلس معه قط، لقد قابلته أخيرًا وصافحته بيدي، لم أقوَ على شرب العصير، وكانت يدي ترتجف بعنف، وكان كلما حثني على الشرب تذرعتُ بأن العصير بارد.

وبعد ساعة تمالكت فيها أنفاسي قلت له: "اعذرني على وقاحتي، ولكن لماذا لم تتأثر بالثورة؟ كل رجال الأعمال خسروا مناصبهم وأموالهم، إلا أنت، اعذرني مجددًا على وقاحتي".

ضحك من قلبه، ضحك كأنه يجرب الضحك للمرة الأولى، وقال: "أنا موَّلت هذه الثورة بالمال، وسأمول زواجك بابنتي أيضًا".

عُدتُ إلى الخلف قليلًا وأنا أنظر داخل عينيه محتارًا، وانزويتُ قائلًا: "على بركة الله".

وخلال أيام حصلنا على عرس أسطوري تحدث عنه الجميع لوقت طويل، ثم سافرنا لنقضي شهرًا خارج البلاد، لكننا منذ أول يوم اختلينا فيه معًا كنتُ أظلُّ جالسًا على طرف السرير أحدِّق إليها فقط، كانت تنتظرني لساعات ثم يغلبها النوم، وفي أحد الأيام عندما طفح بها الكيل قالت: "ماذا؟ لماذا تجلس فقط هكذا؟"

قلت: "هذا أمر عجزتُ أنا كطبيب عن علاجه يا عزيزتي، لن نجد له حلًّا، حتى والدك لن يُحلَّه "

قالت وهي ترفع سماعة الهاتف "أبي؟ هه، بالتأكيد يستطيع".

لمسة

مات زميلنا في المدرسة، صدمته سيارة مسرعة في مساء يوم السبت، في صباح الأحد بكينا عليه كثيرًا، وعند الظهيرة ذهبنا للعب الكرة، لأن ذلك اليوم كان إجازة للحداد، وفي صباح الإثنين عُدنا مُجدَّدًا إلى المدرسة، معظم الأساتذة كانوا في حالة حزن، فقرروا ألا يداوموا هذا اليوم أيضًا، من أجل ذلك أقمنا حفلًا في الفصل قبل فسحة الفطور، وبعد الفسحة لم يكن لدينا ما نفعله فشعرنا بالضجر.

فجأة خطرت ببالي فكرة ستجعلني غنيًّا، طلبتُ مساعدة صديقي المخلص فوافق على الفور، أحضرنا صندوقًا خشبيًّا، وأغلقناه من جميع الجهات بإحكام، ثم صنعنا فتحة عريضة أعلى الصندوق، دهناه بلون رمادي وكتبنا عليه (لمسة انسانية –تبرع) ذهبنا إلى مكتب المدير، أخبرناه بأننا نريد أن نجمع المال من التلاميذ لندعم والدة صديقنا، رحَّب المدير من فوره بالفكرة، مسح على رؤوسنا الصغيرة وقبَّل جباهنا ثم أحضر لنا حلوى، وقال: ليكن الربُّ في عونكم يا أولادي.

وبذلك أخذ مشروعنا الإجرامي طابع الجدية والقانونية، من فورنا خرجنا نلف الفصول كلها، كانت عشرين فصلًا دراسيًّا، طُفناها كلها

في ساعتين، وقد كنا نعدُّ كل قرش يدخل إلى الصندوق، ومع كل ألف يتكون تتسع رقعة أحلامنا وتتبعها ابتساماتنا، فكرنا في كم الأشياء التي سنشتريها، تذكرت كل تلك الألعاب التي كنت أظنُّ أنها لن تدخل غرفتي أبدًا، القطار الذي يعمل بالبطاريات، الكرة الذهبية التي تنفخ بالفم، البندقية التي تغني عندما تسحب الزناد، الكثير من الأشياء في الحقيقة، ساعتها ترحمنا على روح صديقنا الميت، باركنا روحه التي ما تزال تحلق في السماء، تمنينا له رحلة أبدية سعيدة، وتمنينا لو أن التلاميذ يموتون كل يوم.

في نهاية اليوم كان الصندوق ثقيلًا، أخبرنا كل من سألنا ونحن نخطو بسرعة خارج المدرسة أننا في طريقنا الى بيت زميلنا المتوفَّى، سنعطي والدته هذا المال، لكن في الحقيقة كنا في طريقنا إلى البيت لنقتسم المال، بسعادة تخطينا عتبات المدرسة نحو الخارج، لكننا اصطدمنا بالمدير أمامنا، لا ندري من أي جحر خرج، ظهر فجأة مثل جني المصباح وقد ثار حوله غبار الصيف الحار، تقدَّم نحونا وأخذ الصندوق وقال: لقد أعجبتني فكرتكم، أحتاج أن آخذ الصندوق كما هو وأعْرِضَه في اجتماع الآباء اليوم، سأشيد بتجربتكم وأطلب منهم أن يصنعوا صندوقًا كبيرًا لمثل هذه المناسبات، لا تقلقا، سأعيد إليكما صندوقكما صباح الغد.

وللعلم فقد كانت تلك آخر مرة نرى فيها الصندوق، لم يكن هناك أي اجتماع أو إشادة، وفي الأيام اللاحقة كان المدير عندما يقابلنا في

ساحة المدرسة يتغير وجهه ويدير ظهره مبتعدًا عنا، ولم نكن نجرؤ أن نسأله عن الصندوق.

نسينا أمر الصندوق، اعتبرناه درسًا قاسيًا نتعلم منه ونصحح مسار احتيالاتنا القادمة، وانتظرنا طويلًا ليموت أحد آخر، قررنا أنه إذا مات أحد فسنعمل في السِّرِّ، لكن انتظارنا طال ولم يمت أحد، بل إنه حتى بعد أن مررنا إلى الثانوية لم يمت أحد.

شركة القمل

أنا مدير شركة القمل، لديَّ سبعة موظفين، ثلاثة رجال وأربع نساء، كلهم لديهم شعر طويل ومتسخ يتساقط منه القمل كقطرات المطر.

يبدأ الدوام عند السابعة صباحًا، يأتي الموظفون بعد العاشرة، يشربون الشاي ثم يخرجون للفطور، وعندما يعودون يخرجون مجددًا للتبول، بعد التبول يخرجون للصلاة ويعودون مجددًا إلى المكاتب، يقضون ساعتين ثم يذهبون إلى بيوتهم.

في شركة القمل المحدودة عملنا مهم، نبيع القمل للخواجات، لا نعلم لماذا يشترون القمل، ربما يأكلونه أو يصنعون منه شامبو للشعر، المهم أننا نجني المال، القليل من المال، لأنه لا أحد من هؤلاء الأوغاد يريد أن يعمل، مهمتهم هي أن يجلسوا على الأرض ويفلوا رؤوسهم، ثم يقومون بوضع القُملات داخل السلة الكبيرة، لكن هل يفعلون ذلك؟

الأسبوع الماضي لم نجمع سوى مئتي قملة فقط، احتجت الخواجية المندوبة وقالت: لديك سبعة موظفين، يعني لو أخرج كل واحد عشر قملات في اليوم، ففي نهاية الأسبوع سيكون لدينا خمسمئة قملة.

أخبرتُها أن الموظفة الشابة تزوجت يوم السبت، ذهبوا جميعهم لحضور المناسبة، ويوم الأحد تُوفي زوج الموظفة الشابة، فذهبوا جميعهم

للعزاء، ثم غابوا الإثنين أيضًا لأن الموظفة الشابة تُوفيت من الحسرة، وغابوا الثلاثاء والأربعاء كذلك لأنهم كانوا في حداد، يوم الخميس جلسوا وأخرجوا مئتي قملة، وخرجوا مبكرًا لأن الخميس يوم للتنزه والتبضع.

لوت الخواجية فمها ثم خرجت، بقيت أنا جالسًا في انتظار الموظفة الجديدة، اليوم هو يوم المعاينات، أحتاج إلى موظفة شعرها مليء بالقمل.

دخلت الفتاة الجديدة وجلست أمامي، سألتها مباشرة: هل تستحمين؟

قالت: مستحيل، وكيف إذًا سأكسب لقمة عيشي؟!

قلت: لماذا لا أشتمُّ رائحة عرقك؟!

قالت: هذا ليس له علاقة بالقمل، أنا أمسح كامل جسدي بالليمون.

قلت: حدثيني عن نفسك قليلًا.

قالت: لقد تخرجت في الجامعة قبل شهرين، درست في كلية الطب، أيضًا لم أستحم منذ شهرين، لأنني كنت قد حددت وجهتي وانتهيت، لقد كان الطب محاولة لإرضاء والدي.

قلت: كم قملة يمكنك أن تنتجي خلال اليوم؟

قالت: ربما مئة قملة.

قلت: هل تحبين التبول وشراب الشاي والخروج إلى الصلاة والفطور؟

قالت ضاحكة: لالا، أنا لا أدخل حماما خارج بيتنا، ولا أحب الشاي، وأنا لا أصلي، في الحقيقة هذه هي مشكلتي الوحيدة في الحياة، حاولتُ تكرارًا أن أصلي لكن لم أقدر، أما الفطور فأنا أحضر طعامي من البيت.

قلت فرحًا: حسنًا، مبارك عليك الوظيفة أيتها المُقمَّلة.

ثم عاد الموظفون من جديد سبعة، الموظفة الجديدة لم تلبث سوى شهر حتى تغيرت عاداتها، وأصبحت مثل البقية تمامًا، اكتسبتْ عاداتهم في العمل، لم أعنفها، بل أنني شعرت بالسعادة لأنها قد وجدت ذاتها أخيرًا، أصبحت تعرف أن الحياة أكثر سهولة الآن.

عادت الخواجية مرة أخرى، قالت متوجسة: لم نعد نريد القمل مجددًا، لقد توقفنا عن استيراده، أرجوك لا تخبر أحدًا أنني كنت أزورك هنا.

ثم انصرفت قبل أن أسألها: لماذا؟ كانوا يشترون القمل، لكن لا بأس فقد كنت أفكر بالاستقالة على أية حال، ثم جمعت الموظفين السبعة، أجلستهم حول طاولة الاجتماعات ووقفت أمامهم، قلت لهم:

أنتم مرفوتون عن العمل، عَلَتِ الدهشة وجوههم، وكأني كنت أمدُّ نحوهم سلاحًا، ظلوا متيبسين لبرهة، ثم لم ينطقوا بكلمة، ولم يسألوا حتى لماذا قمت بطردهم، نهضوا جميعا ثم انصرفوا بفتور إلى الحمام، وقفوا صفًّا واحدًا منتظمًا، كانوا يتبولون واحدًا تلو الآخر، ثم ذهبوا للإفطار وشرب الشاي، بعدها خرجوا إلى الصلاة ثم ذهبوا إلى بيوتهم.

مرتزق

أنا كاتب مرتزق، فأنا أكتبُ من أجل المال، في السابق، عندما كنت أقضي الساعات الطوال على هذه الطاولة لأكتب، لم أكن أُعيرُ الأمر اهتمامًا، ولم أفطن إلى هذه الحقيقة، رغم أني أمارس فعل الكتابة باستمرار، لكن الأمر هذه المرة، عندما جلست لأكتب نصًّا جديدًا، حرك فيّ شيئًا ظل ساكنًا منذ زمن طويل، ربما هو ضميري، أو أنه شيء آخر، المهم شيء جعلني أتوقف قليلًا عن الكتابة، ثم أرسلتُ نظري نحو مكان بعيد، وفكرتُ كثيرًا فيما أفعل، هل يا تراني أخرجت الكتابة عن معناها الحقيقي؟ أقصد المعنى السامي الذي يتحدث عنه الجميع؟

واصلت ما بدأت من كتابة، كان النص دسمًا للغاية، فأنا أكتبه بعناية فائقة، ليس لينال استحسان القارئ، ولكن ليفوز بالجائزة، أشعر بالحيرة الأن، لماذا لا أكتب لنفسي فقط كما يفعل البقية، إنهم يكتبون حسب قولهم من أجل الإنسان، من أجل أن يصنعوا عالمًا أكثر لطفًا من هذا العالم الذي هدت كاهله القرون، إنهم في أسوأ الحالات يكتبون من أجل أنفسهم، من أجل فعل الكتابة في ذاته، يستمتعون، يرصون

الحروف لتصير ذات معنى، وتقع على القلب بردًا وسلامًا، أما أنا، يا لبؤس نفسي، فأنا أكتب من أجل المال فقط.

هذه الطاولة أهداني إياها والدي قبل عشر سنوات، طاولة صغيرة مصنوعة من الخشب، مرتفعة عن الأرض بمقدار متر، قال إنها ستساعدني على الدراسة، لكن لا أذكر أني جلستُ عليها ذات يوم لأدرس، أما الآن فأنا لا أفارقها على الإطلاق، أقضي الساعات جالسًا لأكتب عليها، كتبت الكثير من القصص التي لا أريها أحدًا، ولا أهتم لرأي أحد، أنا فقط أقوم بإرسالها إلى لجان تحكيم المسابقات، وبعد شهر، يتصلون عليَّ ليخبروني بأني فزت ببضعة جنيهات، وخلال يومين أو ثلاثة أكون قد قبضتُ المبلغ، لكنها كانت مبالغ صغيرة، أما هذه المرة، فالأمر مختلف، إنه أمر حرك فيّ صوتًا داخليًّا دائم السؤال، ماذا تفعل أيها الوغد؟

كان النص أعمق من كل تلك النصوص التي كتبتُها مسبقًا، لقد كانت أحداث القصة تدور في عالم حقيقي، فيه الكثير من البؤس، لقد تعمدت ذلك، ولم يكن ذلك ضربًا من العبث، فأنا أعرف تمامًا من أين تؤكل كتف هذه المسبقات، أظل أراقب لجنة التحكيم لعامين كاملين، من هم، من أين جاؤوا، ماذا كتبوا من قبل، ما شروط المسابقة؟ وأقرأ كل القصص التي فازت في دورات سابقة، لأعرف، أي النصوص تفوز في الغالب، فأكتب لهم ما يريدون، ربما يريدون نصوصًا صعبة الفهم،

تلك التي تُقرأ من المعجم، لا أحد يفهمها، لكنها تدل على حنكة كاتبها، أو ربما يفضلون أن يروا نسور الموت تحلق فوق الورق، يحبون النصوص البائسة التي يموت فيها أبطالها بعد معاناة، وهل يجب أن أكثر من الحوارات، أم أن الشخصيات باهتة الملامح، لا تصدر صوتًا، ما عدد الكلمات؟ ما عدد الشخصيات؟ من أي منظور يحبون أن تُروى الحكاية؟ من راوٍ عليم، أم صوت آتٍ من الداخل؟ وبنية القصة كيف تتكون؟ هل أكثر من الوصف، أم أكتفي بسرد أصل الحكاية؟

على الطاولة هناك الكثير من الأوراق، بعضها صالح للكتابة والآخر ممتلئ بالشخبطة، لكني أميل لشراء أوراق جديدة في كل مرة أسمع فيها عن مسابقة، أو كل مرة تراودني فيها فكرة نصٍّ جديد، عليَّ الآن أن أعترف، وأفضح السِرَّ، وأكتبه على أول ورقة، قبل أن أبدأ حتى بكتابة الإهداء، ربما سيرتاح ذلك الصوت الداخلي كثير الأسئلة، لقد كانت الجائزة هذه المرة مبلغًا ضخمًا، الأمر مُغرٍ إلى الحد الذي يجعلني أتسمَّر مكاني من الدهشة، لكنه شيء مخيف، أن يحركني المال من أجل الكتابة، ربما لست الوحيد في هذا العالم الذي يعيش على هذا المبدأ، وهذا شيء يريحني بعض الشيء، لكنه لا يعفيني من تهمة الارتزاق.

عند المساء تمامًا، في حوالي الساعة التاسعة على وجه التحديد، انتهيتُ من كتابة القصة، كتبتها بعناية، شكلت الحروف، زخرفت الورقة من الجوانب، ثم طبقتها بعناية، وأحضرت ظرفًا أخضر وأدخلتها فيه، وبكل حذر، مسحت على الظرف بلساني حتى ابتلَّ باللعاب، ثم

أطبقت الجانبين معًا، فالتحما وصارا قطعة ورق واحدة، تبتلع قصتي التي ربما ستملأ جيبي ببعض المال، ثم وضعتُها عل جانب الطاولة.

شعرت بالإنجاز، والراحة التامة، أحسستُ بأني في حاجة ماسة لمواجهة ذاك الصوت الذي عذَّبني، وقلت أخاطبه بصوت عالٍ: ماذا في ذلك؟ ما الفرق بيني وبين النجار؟ إنه يصنع الدولاب الجميل ليبيعه لسيدة ثرية، هل يا ترى كان سيصنع ذلك الدولاب بذات الجودة لو أنه سيهبه لها مجانًا، أو هل كان ليصنعه من الأساس؟ في الأخير كلنا تجار بطريقة أو بأخرى.

ثم أغمضتُ عيني وغفوت قليلًا، لكن رنين الهاتف أعادني إلى طاولتي من جديد، فتحت عينيَّ أبحث عن الهاتف، كان بعيدًا، لكن الأمر يستحق، فهذا الهاتف البائس لا يرن إلا عند وفاة الأقارب، يتصل بك البعض ليخبروك عن مكان الدفن والمواعيد، لترتدي ملابسك على عجل وتخرج لتشارك في مسرحية الحزن تلك، رفعت السماعة، وجاءني صوت فخيم.

أأنت الأستاذ فلان؟

أجل، هو بعينه.

أنا مندوب المسابقة الأدبية، لقد فقدنا قبل يومين أحد المحكمين، وظهر اسمك من بين المرشحين الشباب لتولي المنصب، ربما ترغب في زيارتنا لتستلم عملك.

حسن، أحتاج الآن لوقت، لن أستوعب الأمر دفعة واحدة، قال الرجل إنهم فقدوا محكمًا، بالتأكيد سيبحثون عن رجل آخر، يا للهول! يا للهول! أنا هو الرجل الآخر، يا للهول! هل تعرف ما معنى أن تكون محكمًا؟ يعني أن الأجر مضاعَف، يا للهول! بالتأكيد أنا موافق، يا لبؤسي! لماذا لم أخبر الرجل أني موافق قبل أي شيء، قبل أن أعرف التفاصيل حتى؟

ثم بدأ ذلك الصوت الداخلي البائس يناديني من جديد، من أنت لتقيّم إنتاج الآخرين، هل تعرف كيف كتبوا تلك القصص؟ هل تعرف ظروفهم الخاصة، بطريقة ما أنت أصبحت أسوأ مما كنت، أنت بدلًا من أن تتاجر في بضعة جنيهات، أصبحت تتاجر في عقول البشر، وتكرس لأشخاص بعينهم، في يدهم المال، ليحددوا من الأفضل ومن لا يملك أهلية الفوز، لكن هذه المرة لن أجلس لأبرر شيئًا لذلك الصوت، عليّ فقط أن أتجاهله، ونظرت نحو الظرف المغلق بإحكام، وضحكت، أمسكته وببعض احترام فتحت الدرج ورميته هناك.

رسائل جندي

عزيزتي، أكتبُ إليك هذه الرسالة في ظروف عسيرة، فأنا أكتبُ إليك مُجبرًا، إذ طلبوا منا ليلة أمس كتابة رسائل إلى أهلنا ليطمئنوا قليلًا، الرجل الذي يقاسمني الغرفة، كتب إلى حبيبته رسالة غرامية، إنه يصفها أكثر مما يجب، فمن خلال صورتها اكتشفت لأول مرة في حياتي امرأة تضاهيك قبحًا، هه أمزح (لا لست أمزح)، المهم، حتى الآن لم يتسنَّ لي أن أقتل أحدًا، كل تلك الأيام التي قضيتها في الجيش ذهبت سُدًى، فقبل الالتحام مع العدو بدقائق، كان القادة قد وقعوا اتفاقيات سلام، عدنا ليلتها خائبين إلى المعسكر، ولا أدري لماذا يقيمون الاحتفالات ونحن لم نقتل أحدًا، عليهم اللعنة! سأرسل لك المزيد من التفاصيل، طبعًا إن أرغموني على ذلك.

عزيزتي، كما توقعت، اليوم أرغمونا على كتابة رسائل إلى الأهل، لا أدري لماذا يحتاج الأهل للاطمئنان، والحبيبات للرسائل الغرامية، أتمنى أن تدعونا نعمل، فلدينا الكثير من البطاطس لتقشيرها بعد أن

هدأت الحرب، المهم طلبوا هذه المرة أن نصف الخضرة التي حولنا للأهل، هؤلاء كذابون، ما حولنا لا يعدو كونه شجر نيم تتساقط منه الكثير من الأوراق، والحشائش هنا لها أوراق حادة، لقد مزقت أرجل الرجال، نخرج كل يوم إلى النهر لغسل البطاطس ثم تقشيرها، لقد تعلمت الطبخ بالفعل، وبعد قليل سأعد طبقًا من الفول، طبعًا لن أعد طبقًا من البطاطس، أنت كنت تظنين، فأنت غبية كما عهدتُك، هه أمزح (كذبت عليك ثانية)، البطاطس نبيعها في سوق المدينة لتسديد ديون الجيش، حسنًا إلى اللقاء، المرة القادمة لن أكتب إليك حتى لو وضعوا بندقية كلاشنكوف على رأسي.

عزيزتي، لقد وضعوا بندقية كلاشنكوف على رأسي بالفعل، ولأول مرة أكتشف بأني رجل جبان، أخاف من مجرد بندقية محشوة بالرصاص، أنا لا أستحق امرأة مثلك، إلى اللقاء.

أمزح بالفعل، لو فعلتُ ذلك كنت ستموتين منتحرة، أنا أحبك لكن إن انتحرت سأحب غيرك، لن أكذب عليك، أرجو أن تردي عليّ برسالة أطمئن فيها عليك، المرة القادمة لن أكتب إليك إطلاقًا، اللهم إلا إن اشتعلت الحرب من جديد.

عزيزتي المنحوسة، الحرب اشتعلت من جديد، ولم أكتب هذه الرسالة لأني أحس بدنو الأجل أو ما شابه ذلك، كتبتها فقط لأني وعدتُك بذلك، فكما تعلمين أنا رجل نبيل، غصبًا عن أبيك الذي

يراني رجلًا أخرق، وكلنا نمتلك العيون، فأنا أراه مجرد مسخ (ابن لزينة)، لديه الكثير من الجينات الغبية لدرجة أنه أعطاك نصفها، هيهه لست أمزح، لقد رأيت منك الكثير، بالمناسبة، وصلتني رسالتك قبل يومين، كيف أمكنك أن تكتبي رسالة من ثلاثين صفحة، هل شربت شيئًا قبل أن تهدري كل ذلك الحبر؟ لم أكن أتوقع أن تكوني بذلك الغباء، طبعًا لم اقرأ منها حرفًا واحدًا، لأشعلنا بها الحطب ولعبنا على ضوئها الورق، المهم اعلمي بأني أحبُّك جدًّا، وأقدسك إلى أبعد حدٍّ.

عزيزتي أحسُّ بأن الدنيا ليست بخير، فعندما تدوي صافرات الإنذار داخل المعسكر، أتذكرك، وأتذكر صوتك المزعج، لكنه جميل رغم ذلك، البارحة رن جرس الإنذار، ظننا أن المعسكر قد اخترقه الأوغاد، لكننا عندما بحثنا لم نجد إلا فأرًا حاول التسلل إلى مخزن البطاطس، وعندما رأيت الفأر تذكرت أباك، إلى اللقاء يا عزيزتي، لا أحس أني بخير.

خطاب رقم واحد من قائد المعسكر:

عزيزته التي يبدو أنها ليست غالية، لقد مات حبيبك، نعم مات ميتة بشعة، ذهب صباح الأمس على ما أظن إلى النهر ليغسل حبتي بطاطا من أجلي، لكنه لم يعد، ظننا أنه غرق أو ما شابه، لكننا عند المساء وجدنا أشلاءه متناثرة عند الضفة الأخرى، لقد أكله التمساح يا

عزيزته، ومات دون أن يطلق رصاصة واحدة ابن المنحوسة، المهم سنرسل لك الجثة.

خطاب رقم اثنين من قائد المعسكر:

عزيزته، لقد جمعنا ما تبقى من جثة حبيبك، وضعناها في كيس نايلون لنرسلها لك في الصباح، ووضعناها في الثلاجة، لكن في الصباح عندما فتحت الثلاجة، لم أجد حبيبك، الجنود بعد أن سكروا ليلة البارحة أرادوا أن يأكلوا اللحم، وقد فعلوها.

بيان رقم واحد من الحبيبة إلى قائد المعسكر:

أنا لا أهتم، شكرًا.

الرجل السراب

أحسستُ وكأني وُلدتُ اللحظة، فأنا لا أذكر شيئًا مما حصل قبل أن أستفيق، لا أذكر متى دخلت المشفى، ولا لماذا دخلت، فقط وجدتني أفيق من إغماءة طويلة وعميقة، ثقوب كثيرة قد برأت تملأ جسدي النحيل، وأشعر ببعض الإنهاك.

عندما أحست الممرضة بأني عدتُ إلى وعيي قامت مسرعة إلى الخارج، ثم عادت ومعها طبيب شاب يرتدي نظارة، وضع يده على رأسي متحسسًا الحرارة، قاس نبضي ومن وجهه يبدو أنني بخير.

قال: سيد كروق، أهلًا بعودتك.

-كروق من؟

أجابت الممرضة ضاحكة:

– أنت، هذا اسمك، لقد فقدت ذاكرتك بعد الحادث.

ثم أحضرت مرآة كبيرة ووضعتها أمامي كما يفعل الحلاق، وقالت:

-هل تتذكر هذا الشخص؟

-نعم أتذكر، لا أظن أن حالتي بهذا السوء يا مدام.

-آنسة لو سمحت.

قالت ذلك بامتعاض.

-لا يهم، أيًّا يكن، الآن أين عائلتي إن كان لي عائلة، وأين أعمل، ولماذا أنا هنا وكيف فقدتُ ذاكرتي؟ ولا أدري ماذا قلت لينفجر الطبيب والممرضة ضحكًا، أحسست بشيء من الاستخفاف وقلة الاحترام، فهيئتي لا تدلُّ على أني رجل مثير للسخرية، ولا تبدو كلماتي كذلك، قال الطبيب:

-في الحقيقة أنت سجين، قضيت خمسًا وعشرين سنة من حياتك في السجن.

عدلت ساعتها من جلستي، رفعت حاجبي مندهشًا، كان كلام الطبيب غريبًا فعلًا ومثيرًا للسؤال.

- أنا سجين؟ خمسة وعشرين عامًا؟

في تلك اللحظة دخل علينا ضابط شرطة ضخم، شارباه مثيران للضحك ويبدو أنه لم يضحك منذ قرون.

-هل استفاق؟

ثم نظر ناحيتي، قلت: وهل تظن أن عيني مفتوحتان عبثًا.

لم يكترث كثيرًا لما قلت، وبدأ يسرد عليّ بعض حقوقي قبل إخراجي من المستشفى، عرفت أنه لا يمكنني الهرب كوني سجينًا، فأنا لا أحتاج لذلك، فترة سجني قد انقضت منذ يومين ولولا ذلك الحادث المؤلم، لكنت الآن حُرًّا طليقًا.

ليس لديَّ عائلة، إنما صديق قديم قدم أوراقًا للمحكمة وطالب بأن يرعاني بعيدًا عن دور الرعاية، أتشوق فعلًا لرؤية ذلك الصديق الوفي.

أما ماذا فعلت لأستحقّ كل تلك السنوات في السجن؟ فهذا هو العجب بعينه، لقد قتلتُ حارسًا ليليًّا، ضربته بعصاة على رأسه، وسرقت بمعاونة بعض المجرمين، سبائك من الذهب لا يقل ثمنها عن المئة مليون جنيه، كان الأمر صادمًا بالنسبة لي، كيف لشخص مثلي أن يفعل مثل ذلك؟ أحس أنني رجل شريف، رجل يمكن الاعتماد عليه، لا أصدق أني قضيتُ نصف عمري في السجن، الحمد لله أني لا أذكر يومًا واحدًا من أيام السجن، لا أذكر كيف قضيتُ أيامي بين تلك الجدران المصمتة، نسيت كل من عرفتهم في السجن.

قلت للضابط:

- أنت تهذي، أنا رجل شريف، لا يمكن أن أسرق أو أقتل، انظر إليَّ ألا ترى هذا الوجه البريء؟

ثم استلقيتُ على ظهري، وأغمضت عينيّ لبرهة، تمنيت أن أغيب عن وعيي مرة أخرى وأستيقظ في مكان آخر، أردت أن أستيقظ لأجد حولي أبنائي وزوجتي، أو حتى ذلك الصديق الذي تحدثوا عنه، وأن أنهض صباحًا لأقود سيارتي إلى العمل. لكن عند الصباح، كنت أقفُ أمام المستشفى منتظرًا، أحمل كتبًا قيل لي إنها كانت تخصني في السجن، وكيسًا أسود صغير بداخله قليل من الملابس القديمة، يبدو أنه لا مفر من هذا الواقع الغريب، كيف سأعيش حياتي وأنا أعلم أني رجل خطير، مجرم فتاك وقاتل، يا للعار! أتمنى أن أنسى هذه اللحظات، وأن يأتي ذلك الصديق ليأخذني بعيدًا عن هذا المكان الكئيب، انتظرت لساعات قبل أن تقف أمامي سيارة صغيرة مظللة، نزل الزجاج تدريجيًّا، ويبدو أن السائق يلاقي صعوبة ما في إنزال الزجاج اللعين، لقد كانت امرأة، في حدود الأربعين تقريبًا، وتدخن سيجارة، كانت ترتدي زيًّا أفريقيًّا غريبًا، أخبرتني لاحقًا أنه هدية من صديق هندي، أخبرتُها مندهشًا ساعتها أنني ظننته هدية من صديق أفريقي.

المهم أنها طلبت مني الصعود إلى السيارة الصغيرة، فصعدت دون أن أطرح سؤالًا، قلت ربما هي سائقة صديقي وستأخذني إليه، بدا الطريق طويلًا إلى حيث نقصد، وهنا تجرأت على الكلامك:

-سيدتي، إلى أين نحن ذاهبان؟

-ستعرف بعد قليل.

-هل أرسلك صديقي؟

-صديقك من؟ اصبر يا رجل، كدنا نصل.

سكت، وأشحت بوجهي عنها ناظرًا عبر النافذة، قلت:

هذه المدينة عتيقة جدًّا، لابد أنها كانت أسوأ من ذلك، فخمسة وعشرون عاما كافية لتبدل الكثير من الملامح.

-هذه الخرطوم، وصدقني لم تتغير كثيرًا منذ أن تركها الإنجليز قبل مئة عام، وفي المدة التي غبتها أنت لم تتقدم المدينة إلا في السن.

جلسنا على مقاعد خشبية أمام أحد المطاعم، طلبت لي السيدة كوبًا من القهوة دون أن تستشيرني، وقالت إنها لا تشرب القهوة لذلك ستكتفي بالماء، وباغتتني قائلة:

-أنا صديقتك.

- يا للهول كنت أظنك رجلًا! لكن لا بأس، النساء أفضل من الرجال، بالله عليك ماذا سأستفيد من صديق ذكر.

-ليس لدينا وقت للكلام، هل تذكر أين دفنت الذهب؟

ثم استدركت قائلة: أوه عليّ أولًا أن أخبرك بما حدث بالتفصيل، أنا اسمي مسكة، كنا نعمل معًا في هيئة السكك الحديدية لو تذكر، فكرنا ذات يوم بعد أن سئمنا من الراتب الهزيل، أن نسرق البنك المركزي.

-ماذا؟ البنك؟

-كانت فكرتك على فكرة، المهم أننا خططنا للسرقة مدة طويلة، وكنت تدون كل أفكارك على الورق، أنا الآن أريدك أن تجد ذلك الورق، وأن تجد مكان الكنز، وسنقتسم الذهب كما اتفقنا تمامًا.

ظللت ساكنًا في مكاني أفكر، هل هذا حقيقي فعلًا؟ وهل هذه السيدة الغريبة شريكتي؟ لكنها لا تبدو سيدة شريرة بالمعنى الذي قد يتصوره البعض، تبدو وديعة وصادقة، ولا بد أني أغويتها لتقوم بذلك العمل السيئ، يا لي من رجل سيئ وقاس!

غاظها صمتي وصوت القهوة وأنا أجرُّها إلى جوفي جرًّا، أخذت الكيس الذي وضعته على يميني وبدأت تبحث بين الصفحات، كنت أظنها كُتبًا عادية، ولكني تفاجأت بمخططات وكلمات غريبة على جنبات الصفحات، كان من ضمنها خطة عبقرية للهرب من السجن، ومن التاريخ يبدو أنها خطة قديمة تعود لعشر سنوات من اليوم، لا أدري لماذا لم أنفذها، ماذا حدث يا ترى؟

-هل ترى هذا؟ إنه وصف لمكان الكنز.

قطبت حاجبي وانحنيت ناحية الكتاب: كورنيش، 120 شمال، ستة أمتار، ما هذا الكلام.

-لقد فهمت، هذه الكلمات تقول إن الكنز مدفون على بعد مئة وعشرين خطوة شمال الكورنيش، على عمق ستة أمتار.

-إمم يعجبني ذلك.

-حسنًا، نلتقي غدًا صباحًا هناك، وأنا سأجلب معي بقية الرجال لنخرج الكنز، خذ هذه مفاتيح الشقة واذهب من هذا الاتجاه.

أحكمتُ قبضتي على المفاتيح، ثم انطلقت إلى حيث سأنام الليلة، فكرت أن آخذ حمامًا دافئًا ثم آكل شيئًا مستعجلًا وآوي إلى الفراش، سأنام طويلًا، ربما عدت إلى صوابي وتذكرتُ شيئًا.

لكن دقيقة. هذه المرأة الغريبة أنا لا أعلم عنها شيئًا، ماذا لو كانت لصة؟ لا أظنني رجلًا ساذجًا، أنا لصٌّ محترم ومحترف، سأذهب لأخرج كنزي بيدي من تحت الأرض، وبما أني رجل سفاح فسأقتل عدة أشخاص هناك، حتى أستعيد حيويتي المنسية، ربما رائحة الدم تذكرني بما مضى، ورميت ما بيدي من كتب وأكياس، ثم عدتُ راجعًا إلى مكان الكنز، تطلب الأمر سيرًا على الأقدام وقتًا طويلًا، غابت الشمس تمامًا وأصبح الجو رطبًا، وبدأت أشعر بالتعب، ولكني وصلت. كانت مسكة تقف عند رأس حفرة كبيرة، حولها عدة رجال يحفرون الأرض.

-آها، ولماذا الخيانة يا سيدة مسكة؟ ألم نتفق على موعد آخر؟ أذكر أننا تحدثنا عن الغد، هل تذكرين؟

لم تكلف نفسها عناء الكلام، ولكنها أشارت إلى الرجال بيدها فقط، ووجدت نفسي أقع على الأرض وأتلقى بضع لكمات مؤلمات، غبت عن الوعي تمامًا ولا أدري ماذا حدث، لكني عندما استيقظت كنت راقدًا على الرصيف أمام المستشفى، كان الجو صحوًا وشمس الصباح قد بدأت تستعر، وقفت ناهضًا وأزلتُ التراب عن سترتي، تلفت يمينًا وشمالًا محاولًا استيعاب ما يحدث، لا بد أنهم وضعوني هنا قبل لحظات، لكن لا بأس، هذا الكنز اللعين لا يهمني كثيرًا، أنا سعيد بهذا الوضع الغريب والمريب.

بعد لحظات، وقفت أمامي سيارة مظللة ولكنها كبيرة بعض الشيء، ترجل منها رجل محترم في نفس عمري تقريبًا، تقدم نحوي بخطوات ثابتة وأنيقة، وقال:

-كروق صديقي، اشتقت إليك كثيرًا. ثم ضمني إلى حضنه، عصرني بقوة حتى أصدرت صوتًا مكتومًا.

– شكرًا، لكن من أنت؟

-أنا صديقك، ألم يخبروك في المشفى.

-أنت صديقي؟

-أجل، لا بأس إن كنت لا تذكرني، سنبني لك حياة جديدة وجميلة.

طبعًا اعذرني لم أستطع المجيء لأخذك البارحة، حدث عطل مفاجئ في مكابح سيارتي. حسنًا لقد ركبت السيارة مرة أخرى، ولكني كنت حذرًا:

– اسمع يا صديقي، إن كنت تبحث عن كنز ما فأنا لا أذكر، وإن كنت تريد وصفًا للمكان فهو في الكورنيش على بعد **120** خطوة في عمق ستة أمتار، لا أعرف شيئًا آخر.

أوقف الرجل السيارة فجأة، نظر إليَّ بزاوية حادة، ثم انفجر ضاحكًا في وجهي، بدا الأمر أسخف ما يمكن أن يكون، هؤلاء الناس غريبو الأطوار فعلًا، لا أدري إن كنت فقدت ذاكرتي أم فقدت العالم أجمع، ولكني سأواصل مهما يكن، ولنرَ ماذا يريد الرجل. أدار المحرك من جديد، واصل المسير حتى توقف أمام شارة المرور، ساعتها التفت ناحيتي قائلًا:

-أنت بريء، لم تسرق قط، لقد تكالبوا عليك يا صديقي واستغفلوك، لقد كنت موظفًا ممتازًا في هيئة المياه، لكنهم فصلوك ثم اتهموك بالسرقة.

-هيئة المياه أم السكك الحديدية؟ ما هذا العبث؟

ثم استدار يمينًا واتجه ناحية الشمال، كنت أكتفي بسرقة النظرات نحوه من فينة إلى أخرى، أمر محير فعلًا ومُقزّز، من أنا؟

قِصة الجنُود الذين

خُوزقوا القائد

(عندما قرّر السودانيون غَزو أمريكا) .

صَنع السودانيون سُفنًا كثيرة وحدِيثة، زودوها بِكل التفاصيل الدقيقة التي تُعينهم على الغَزو، ابتداءً من الرادارات قَوية التحسس وانتهاء بِفناجين القهوة وشاي الغَزالتين، ولكن في يوْم الانطلاق لمْ تتحرك السُّفن، لقد صنعوها عَلى الطراز الأمريكي، ومن ثم يَحتاجون لشفرات تشغيل مِن أمريكا، وبالتأكيد أمريكا لنْ تُعطيهم الشفرة كونها المكان المستهدف بالغزو.

صَنعوا سُفنًا أخرى، وهذه المرة بِطراز آخر وبشفرات معلومة وتجهيزات أحدث من ذيٍ قبل، وزودوها بمحلين للعَماري الممتاز ومحل عوضيه للأسماك، وانْطلقت السفن في عَرض البحر، ولكنها غَرِقت فجأة، لقد حمّلوها فَوق طاقتها، وبدل أن يَصْعد على متنها ألفُ جندي فقط، كَانوا يصعدون ما يزيد عَن الألفين فِي كل سفينة، بسبب الوساطات التي يَستخدمها الجُنود، فمِن المعلوم أن الجنود الذين

سيحررون أمريكا سَينالون أكْبر قسط مِن الغنائم، وبِالغنائم يقْصدون الحسناوات أمثال جِينفر لُوبيز وأنجلينا جُولي والجَاسوسات الثلاث المُثيرات وحَبيبة ويل سميث فِي فلم مين اِن بلاك وبَنات باراك أوباما الاثنتين.

صنعوا هَذه المرة سُفنًا أخرى، وقوية تتَحمل حتى ثلاثة آلاف جندي، ولكنها كَانت قَليلة العدد، بصعوبةٍ سَتكفي رُبع الجَيش، واكتشفوا لاحِقًا أن الشَخص المسؤول أكل مِيزانية التَصنيع، وحَسَب التحريات فقدْ تحول المسؤول الى رَجل أعمال في غضون أيام، واشتَرى فِيلا في كَافُوري وأخرى في المُهندسين وفيلا ثالثة في أُمبَدة، وقال إن فِيلا أُمبدة لِكف العين، ولم يتَحرك الجيش بعد.

صنعوا سفنًا إضافية، وهذه المرّة تحرك الجيش نحو أمريكا، ويبدو أنه أخيرًا ستَدين أمريكا للسُّودانيين، وسنُصبح قوة عظمى تقهر العالم، وَصلت السفن إلى أمريكا بِلَيْل، نزل الجنود بكل حَماسة، حملوا أسلحتهم القوية وهُم كلهم عزيمة على النَّصر.

ثُم. شموا رائحة دُخَان، شاهدو الحَريق يلامس السحاب، نظروا خَلفهم فكان القَائد يحرق السُّفن عن بكرة أبيها، نظر إليهم وقال: مُش درسوكم قصة طَارق بن زِياد في المدرسة؟ خلاص طيب مَخلوعين مالكم.

وما هي إلا دَقائق حتّى كانت طائرات الـ إيف 16 تُحلق فوق رؤوسهم، وهَرستهم هَرْس الطماطم، أحسوا بالخطر وقرروا أن يعُودوا

أدراجهم، ولَكِن السُّفن كانت قد تحولت إلى رَماد وغرقت لتوها، وحبًّا مِنهم في القائد صَنعوا له مَركبًا صغيرًا، وقالوا: نحن سنتصرف، أنت أرجع وبلِغ أهلنا سلامنا، وقول لكل الشَعب نحن صَامدون وسنقاتل لآخر نفس، لآخر طَلقة، لآخر نُقطة دم وكباية شاي وفِنجان قهوة وسفة سعوط وصابونة فنيك.

ولكِن المركب غَرقت، ومَات القائد، خَشب المرِكب طلع صيني، والجُنود خوزقوا القائِد.

عشاء مستعجل

ما إن جلستُ على الكرسي، واتكَأَ رأسي على يدي اليسرى فأحسستُ ببعض الراحة، حتى تذكرت أن ابنتي ليست معي، لقد أضعتها للتو وسط هذا الزحام من الأطفال، فكرت أنها ربما تكون قريبة، ربما اختفتْ خلف زلاقة أو لعبة ما، كان المكان يعج بالناس، والشمس بدأت تلملم أطرافها من بعيد، وضوؤها يفقد هيبته شيئًا فشيئًا، وكون المغيب قد حل، فهذا يعني أن علينا العودة إلى المنزل، لكن أين هي هذه المشاكسة.

الجو صحو بعض الشي، ومزاجي معتدل كذلك، فمنذ زمن لم أشعر بالراحة في الحديقة، فأنا عندما أدخلها أحس بطفل عملاق يحكم قبضته حول عنقي، ثم يرديني قتيلًا، جيش جرار من الآباء المستعجلين يهرولون فوق جثتي، يجرون خلف أولئك المشاكسين الصغار حتى لا يقعوا في المشكلات. عادة لا آتي إلى الحديقة إلا تحت ضغط كبير من زوجتي، تقول إن البنت الصغيرة ربما تصاب بالاكتئاب المزمن،

الاكتئاب المزمن؟ حاولت أن أسألها مرارًا عن معنى هذه الكلمة، لكنها لا تنفك تقول: خذ ابنتك واخرج يا رجل.

أمي تعتبرني أبًا فاشلًا، لا تعتمد عليّ كثيرًا في أخطاء ابنتي وتربيتها، فعندما دلقت الصغيرة إناء السكر ليلة البارحة، كادت أمي أن تنشق من الغضب، انتفخت مثل سمكة البالون، فبدت مضحكة جدا، وبدلًا من أن تعاقب الصغيرة، قذفتني بإناء كان في يدها، لا أدري ما وجه العلاقة بيني وبين ما فعلته ابنتي، لا أستطيع على أي حال أن أراقب كل حركاتها وسكناتها. حتى وإن ثابرت ستأتي لحظة يصبح فيها الطفل غير مرئي، كما هو الآن. ليس بالبعيد عني طفل صغير يلعب بالطين، ويسند رأسه على حائط يفصل بين حوض السمك وكشك البالونات، ذهبت إليه حاولت أن أكلمه، ولكنه لم يلقِ لي بالًا، نظر نحوي بقسوة ثم تابع ما كان يفعل، يا لسوء التربية! من الواجب عليه أن ينظر جهتي كما علمه والداه، أن ينظر إليّ ويقول: مرحبًا عمو ، لكنه لم يفعل، لا أنكر أنني شعرت ببعض السوء، ولكني أعذر والديه، ففي هذا الزمن أصبحت المعايش تلهي الآباء عن تربية أبنائهم، أذكر أن أبي كان كثير الترحال، يعمل لجهة ما ترسله الى أبعد البقاع، ذات مرة غاب لعامين كاملين، في مكان مقطوع، لا تصلنا منه الرسائل، كنت حينها أمر بمرحلة جديدة من عمري، تغير صوتي الطفولي إلى آخر أجش، نبت لي شارب ولحية صغيرة، ثم بدأ شعر رأسي ينحسر قليلًا،

زاد طولي ووزني بصورة ملاحظة، وحسب ما أخبرتني أمي فإني أصبحت مسؤولًا ومكلفًا بكل الأعمال، ثم عاد أبي ذات ليلة ممطرة ومظلمة، كنت أجلس عند الباب أنتظره رغم برودة الجو، ولكنه ما إن رآني حتى عاجلني بلكمة أردتني على الأرض، لا أدري ماذا كان يظن، لكنه اعتذر كثيرًا عندما أفقت.

أمسكت الصغير من يده وقلت:

_ هل رأيت طفلة ذات ضفائر تمر من هنا؟

_ ....

_ طفلة في مثل سنك تقريبًا، إلا أنها أنحف منك قليلًا، ماذا تأكلون هذه الأيام.

قلت ذلك مبتسمًا، ولكنه انفجر في البكاء، وبدأ يصرخ كأن حجرًا عملاقًا أُلقيَ في جوفه الصغير، أمر لا يصدق، بدأ الناس يلتفتون نحوي، ولأول مرة أحس بالريبة، وأن منظري يدعو إلى الشك، أحسستُ بيد غليظة تمسك بكتفي، ويد أنثوية تشدني من شعري وتلقي بي أرضًا، رجل وامراه يقفان فوقي، يصرخان: من أنت؟ ماذا تريد من ابننا؟

_ أنا لم أفعل شيء، أنا فقط أبحث عن ابنتي الصغيرة، كنت أسأله فقط إن رآها.

شدت المرأة الغاضبة شعري، في حين ضربني الرجل لكمة قائلًا: طفلنا مصاب بالتوحد، انظر اليه، كان الأجدر بك أن تتصل بأمن الحديقة بدلًا من إزعاج الناس.

وقفت ناهضًا أنفض ما علق على ملابسي من الغبار، وأنا أشعر بالعار، كل العار على ما فعلت، قلت للرجل:

_ وأين أجد رجال الأمن؟

_ هناك.

أشار بيده ناحية مبنى الإدارة، وتذكرت أني أعرف ذلك جيدًا، قبل أعوام، قبل أن أتزوج، كنت أعمل حارسًا في حديقة، يأتي إليّ الناس للشكوى أو للبحث عن مفقود، لقد نسيت ذلك تمامًا، إنها الذاكرة الخربة بسبب الأولاد.

دخلتُ مبنى الإدارة لعلي أجد ابنتي هناك تنتظرني، وجدت الحارس يجلس خلف مكتب صغير، يضع أمامه قارورة لمشروب غازي، يبدو وكأنه لم يتحرك منذ قرون، كرشه الكبير بدا منتفخًا بإفراط، وبصعوبةٍ فإنه يستطيع رؤيتي بتلك العينين المدفونتين، أنا لا أرى له حواجب، وقبل أن أفتح فمي لأتكلم معه باغتني قائلًا:

_ هل أضعت طفلًا ما؟

قلت مندهشا:

– فعلًا، كيف عرفت ذلك؟

_ يا بليد، هل تظنني أبيع السمك هنا؟

نهض واقفًا ثم بدأ يدور حولي وكأنه شارلوك هولمز، كان ينقصه الغليون لذلك أخرج سيجارة وأشعلها، سألني عن اسمي واسم ابنتي، مكان سكني ورقم بطاقتي، وشهرة عائلتي، ثم أخذ عدته التي لا تمت للبحث بصلة وخرج، انتظرته كثيرًا في المكتب، كان الليل قد حل تمامًا، وأضواء الحديقة تنازع القمر سطوته، بدأت أشعر بالرعب، أين ذهبت ابنتي وأين اختفى الحارس، خرجت هائمًا أطوف أرجاء الحديقة باحثًا عن الطفلة والحارس، ولكني عدت خائبًا، لذلك قررت أن أرجع إلى البيت كي أخبر زوجتي وأمي ثم نذهب كلنا إلى مخفر الشرطة.

الليل أسوأ وقت للحيرة، فلا أحد يأبه لك أو يراك بوضوح، أنت في نظرهم مجرد شبح يمشي ويقف عند الناصية منتظرًا الحافلة، يحشر يديه داخل جيوبه، ثم يصعد في هدوء. كان الطريق مزدحمًا بالمركبات، جلست عند النافذة ثم سرحت بخيالي، تذكرت ما فعلته الصغيرة في الصباح، ابتسمت قليلًا وأنا أتذكر تفاصيل ما حدث، يا للإحراج، جلس قبالتنا رجل عجوز، يبدو وكأنه قد خرج من ظلام حالك أو عاد من العالم الآخر، يبدو شاحبًا وبائسًا، كانت ابنتي تتوسط حِجري وهي تنظر باستغراب ناحية الرجل العجوز، ثم صرخت قائلة:

– بابا، انظر لهذا الرجل المضحك.

نظر إلينا الرجل شزرًا، بدا مستاءً وأشاح بوجهه ناحية النافذة، أضافت:

- انظر إلى النقوش التي في وجهه، يشبه جدتي.

حاولت أن أثنيها عن الكلام ولكنها أصرت:

- هل هو كثير الكلام مثل جدتي؟

حسنًا، نزلتُ من الحافلة ودفعت التذكرة باستعجال، وبدأت أسير على قدمي متسكعا، محاولًا تحضير ما سأقول، أي كذبة يمكن أن تساعدني وتنقذني من بين يدي زوجتي، وشماتة أمي، هل أقول الحقيقة، هكذا فقط، جلست على الكرسي وفجأة تذكرت أن ابنتي ليست معي؟ أي عقل يصدق مثل هذا العذر، أنا مهمل فعلًا، كثيرًا ما كنت أتركها أمام الباب وأذهب لأقضي غرضًا، لكني أجدها كما تركتها عندما أعود، تتشبث بقدمي فرحة، أحملها بين يدي وأقذف بها عاليا ثم أمسكها، تلك كانت لعبتها المفضلة دومًا.

ستصرخ زوجتي وتستشيط غضبًا، ستشتعل عيناها مثل عيون الموقد، لكني سأحاول تهدئتها، وأربت على كتفها وأقول: لا بأس، سنذهب حالا الى المخفر، سأعطيهم صورتها التي التقطناها مؤخرًا، تلك التي تبدو فيها أكثر جمالًا من أي وقت، وتحمل دميتها الصغيرة، لا تقلقي، سنجدها، أنا متأكد يا حبيبتي، ثم أضمها إلى صدري، سأفعل ذلك بالتأكيد.

أما أمي فستشمت لا شك، لكنها ستبكي آخر الأمر، هذه حفيدتها الوحيدة، ربما الأخيرة فأنا لم أعد أقوى على إنجاب المزيد من الأطفال، فتلك خطيئة كبرى يقترفها الناس بحق أولادهم، كيف يمكن لشخص عاقل أن يتسبب في تعاسة إنسان، أن يخرجه إلى هذا العالم الخالي من كل شيء إلا البؤس، يحضرون الأطفال من الغيب ويلقون بهم إلى التهلكة، وقال ماذا؟ يموتون ويتركون لهم بعض ملاليم.

دفعت الباب بكلتا يدي، وكاللص تسللت إلى الداخل، كنت أحس بالعار والخزي، دخلت على أمي في غرفتها، كانت تصلي، لذلك انتظرتها لنصف ساعة حتى قامت من سجادتها، سألتها على عجل: أين زوجتي؟

_ زوجتك من يا موكوس.

أمي تكره زوجتي جدًّا، ترى أني لم أحسن الاختيار، فعلًا كل اختياراتي في الحياة كانت فاشلة، باستثناء زوجتي، أظنُّ بأنها الخيار الصائب، وذلك لأسباب كثيرة أهمها أنها الوحيدة التي تستمع إليّ عندما أتحدث، وتراني إنسانًا حكيمًا، وعندما وصفتها أمي بالحبشية قلت لها إن الحبشيات جميلات، لديهن بشرة نحاسية اللون، وأجسادهن جميلة وطويلة، يغنين بمرح ويرقصن بتمايل، إنهن مثل العقارب يلدغن الروح، إنهن الأجمل في العالم كله.

ساعتها ابتهجت وقالت: أنا لم أر الحبشيات من قبل، لكن إن كن بهذا الجمال فلا تذكرهن أمامي منذ اليوم. كم هي رائعة زوجتي.

_ لقد أضعت ابنتي الصغيرة يا أمي.

_ ابنتك من؟ زوجتك من؟ أنت مهووس فعلًا، اغرُب عن وجهي ودعني أكمل صلاتي.

_ كيف تسألين هذه الأسئلة، لدي زوجة وابنة، ولقد أضعتها للتو.

_ ليس لديك زوجة ولا ابنة، لا أدري إن أصابك مرض ما، ولكنك منذ أيام على هذا المنوال، تعود منتصف الليل باحثًا عن زوجة لم تتزوجها، وتضيع شيئا ليس عندك، غدا سأعرضك على طبيب نفسي، لقد انقضى وقت العشاء، هل أعد لك عشاء مستعجلًا؟

_ ليس لدي زوجة ولا طفلة، ااااه هم وانزاح، بشرك الله بالخير يا أمي، حضري العشاء المستعجل إذًا.

مذكرات

مذكرة 1

أنا بنت، جميلة، طويلة، وحيدة، وقد مللت من الوحدة، أبحث الآن عن رجل يعرف كيف يعاملني بطلف، يخاف أن يحزنني، أو يغضبني، يجعلني حياته وأجعله حياتي.

مذكرة 2

هذا الشاب جميل، ذكي، طويل، سأموت إن لم أتزوجه، أحب كلامه، ابتسامته، فطنته التي فاقت الحد، ربما معًا سنكون سعيدين، أفضل زوجين في العالم.

مذكرة 3

نحن الآن في فترة الخطوبة، أسعد أيام حياتي، حكى لس الكثير من النكات، أضحكني حد البكاء، هناك الكثير من الهدايا، الكثير من الحب، الكثير من السعادة، والقليل من الإرهاق.

مذكرة 4

عام كامل على الزواج، نصنع السعادة كل يوم، نشاهد الأفلام الجديدة معًا، ننام معًا، نصحو معًا، نتبادل القُبَل والحب، كل شيء على أفضل حال، لن أجد حياة أفضل من هذه، أتمنى أن نظل معًا إلى الأبد.

مذكرة 5

عامان، وهناك طفل صغير، لكنه أذكى من والده قليلًا، يحتاج الذهاب إلى الروضة، والده أحيانًا يتهرب من الصرف، لكن لا بأس، حياتنا لا يمكن أن تكون أفضل من ذلك.

مذكرة 6

خمسة أعوام، هناك الكثير من الهراء والازعاج، طفلان لا يكفان عن الصراخ والطلبات، وزوج غائب طول الوقت، ماذا أفعل؟ أين سأذهب،؟ ربما لو استشرت أحدًا ليدلني ماذا أفعل، لقد تعبت.

مذكرة 7

زوجي أصبح لا يطيق البيت، لديه كرش كبير ليهتم بملئه، لديه نزوات يقضيها، والسجائر، الكثير منها في كل مكان، ربما لو أستطيع أن أغمض عيني وأفتحها، فأعود كما كنت في السابق، أيام الملل، لقد فطنت إلى أن البحث عن السعادة أجمل من السعادة نفسها.

مذكرة 8

لقد طلبت الطلاق، لكن الناس لم يتركوني وشأني، كل يوم ينزل علينا الأجاويد ليعيدونا إلى سجننا الأبدي، لكني كنت أرفض، يتحدثون عن ضياع الأبناء، لكن لا أحد تحدث عني، ماذا عني، لا أحد يهتم، لكن في نهاية المطاف، عدتُ إلى البيت، مجبرة، ما باليد حيلة.

مذكرة 9

لقد قتلته، نعم قتلتُه، هذا الصباح خرِج الولدان للعب، أخذتُ السكين وشققت كرشه إلى نصفين، لم يستطع الحراك، ظل محدقًا إليَّ حتى خرجت روحه، لقد أخافني فعلًا بتلك النظرات، الآن أنا أنتظر الجيران والشرطة ليهنئوني على ما فعلت، وطبعًا، لا داعي لطلب الطلاق، ما جدوى الطلاق من جثة؟

بعوض

لقد قتلت بعوضة كانت تحوم فوق رأسي، قتلتها بدم بارد اتقاء شَرِّها، وكان هذا أمرًا اعتياديًّا أفعله كل مرة، لكن هذه البعوضة كانت مختلفة.

فبعد أيام وبينما أنا أغطُّ في النوم اقتحم غرفتي سرب كبير من البعوض، ربما مليون بعوضة، وحملوني إلى مكان بعيد ومظلم، وهناك نصبوا لي محكمة عاجلة.

قال البعوضة القاضي: يا سيد أنت متهم بقتل البعوضة السيدة الفاضلة مربية الأجيال ما قولك؟

كنت أعلم أني أحلم، لكن كل محاولاتي للاستيقاظ باءت بالفشل، بل إني كنت أحس بكل لسعة من لسعات البعوض الذي يكبل يدي، ويصنع حولهما معصمًا بعوضيًّا قويًّا.

قلت للقاضي: هل هناك من يترافع عني؟ أعني هل لديكم هنا باعوض درس في كلية القانون؟

وفي الحال خرجت من بين جموع البعوض بعوضة صغيرة ترتدي بدلة سوداء وربطة عنق، وتحمل حقيبة يد صغيرة ووقفت أمام القاضي وقالت: حاضرة عن المتهم.

ثم بدأت الجلسة واستمرت لساعات، كل هذا الوقت وأنا لا أستطيع الاستيقاظ، وكان عليّ أن أستمع لكل ما يقال، وعندما شعرت بالضجر قلت للقاضي: أنا أعترف بأني قتلت البعوضة الفاضلة مربية الأجيال، ولكنها جاءت لتمص دمي.

وهنا تغير وجه القاضي، ويبدو أن كل الدم الذي شربه في حياته تجمع في وجهه، قال: لم تكن تريد أن تشرب دمك، لقد كانت تقوم بجولة استكشافية، ولكنك رجل سيئ، تقتل البعوض بلا سبب.

ثم أمر بإحضار أبناء البعوضة الفاضلة ليمثلوا أمام القاضي، وسألهم: هل ستعفون عن هذا الرجل؟

قالت البعوضات المراهقات بصوت واضح وواحد: القصاص فقط يا سيادة القاضي.

شعرت بضيق شديد، منذ متى ونحن نحاسب على قتل البعوض، لو أني فقط أستفيق من هذا الحلم، سأشتري مبيدا وأقتل كل بعوضة تقف

أمامي، قلت لأولاد البعوضة الفاضلة: هل لديكم ما يثبت أنكم أبناء المرحومة؟ في هذا المكان يمكن أن يدعي الجميع أنهم أبناء المرحومة، كيف لي أن أعرف؟

وفي الحال أخرج أحد البعوضات أوراقًا وقال: هذه هي شهادة الوفاة، وهذا هو الاشهاد الشرعي بأننا أبناء المرحومة وورثتها الوحيدون، وأنت كنت لا تصدق هذه بطاقاتنا القومية لتتأكد.

بالفعل كانوا هم أبناء المرحومة، كانوا غاضبين ووجوههم ممتلئة بالدم، لذلك حاولت أن أدافع عن نفسي للمرة الاخيرة، محاولًا التحدث بالمنطلق الكامل، وقلت: أيها البعوض المحترمون المتجمعين في هذا المكان، أنتم تؤمنون بالقانون، وأنا كذلك أومن بالقانون، وأعلم أن الحقيقة لا يمكن لأحد أن يخفيها، لكن يمكن له أن يشوهها ويقدمها للناس ممزوجة بالسم، أنا بالفعل قتلت تلك البعوضة، ولكن لم أكن أعرف أنها مسالمة، أنا عشت في هذا الكوكب لسنوات طويلة، وأعلم أن لسعة البعوض مؤلمة وتسبب الملاريا، ونحن نقتل البعوض منذ زمن بعيد، وهذا من أدبياتنا في الحياة، كيف أكون مذنبًا وأنا أحارب البعوض وهو يحاربني؟

ويبدو أن كلامي ليس مقنعًا، فالبعوضة الصغيرة ابنة المرحومة طلبت الإذن بالحديث، وعندما أذن لها القاضي وقفت فوق مكان عال ثم بدأت تخاطب الجموع: هذه يا سيد مغالطة غبية منك، ليس لأنك

تعرضت للسعة بعوضة قبل الأن ستسمح لنفسك بقتل أمي، ما ذنب أمي أن لسعك بعض قومها؟ هل أنت من أولئك الناس الذين يقومون بإصدار أحكام مسبقة على الناس، هل كوني بعوضة يعني أني مذنبة ومن حقك أن تقتلني لأن بعوضة لا أعرفها قد لسعتك؟ عليك أن تشعر بالعار يا سيد.

ثم أجهشت البعوضة المسكينة بالبكاء، بينما جثوت أنا على ركبتي أبكي، ثم أقررت بذنبي، وتنحنح القاضي طالبا الهدوء ليعلن حكمه النهائي في القضية، وقال: حكمت عليك أنا، بصفتي كبير قضاة البعوض في هذه المنطقة، وممثل دائرتي في البرلمان العام، وحاكم المقاطعة الجنوبية، ونسيب رئيس الجمهورية، حكمت عليك بالإعدام لسعًا.

سألته: متى تنفيذ الحكم.

قال: الآن. ثم بدأ الهجوم بنفسه، وتبعه كل البعوض الذي حضر المحاكمة وبدأو في لسعي بقوة، وفجأة استيقظت مرعوبا، حمدتُ الله كثيرًا على ذلك، لكن كانت اللسعات الكثيرة التي تلقيتها في الحلم ظاهرة على جسدي، وكانت تؤلمني بشدة.

ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أقتل البعوض.

رحلة ذبابة

هبطت الذبابة الصغيرة فوق حافة الكوب، استراحت قليلًا ثم راحت تمسح المكان بعينيها الملتصقتين. كانت رحلتها الأولى خارج وكر الذباب، لم يبدُ لها المكان مخيفًا كما كانت تتوقع؛ ذلك لأن أحاجي الجدات داخل الوكر كانت خرافية أكثر من اللازم، والمواد الاحترازية التي تعلموها في المدرسة عن المخلوقات العملاقة كانت موادًّ متشددة وغير منطقية.

كانت الجدات تخبر الصغار عن المخلوقات العملاقة كثيرًا، وللمبالغة غير المبررة يتهمن العمالقة بالتسبب في موت كل ذبابة لا تعود إلى الوكر عند المساء، وتتذكر قول جدتها جيدًا: "هذه المخلوقات تكرهنا حد الموت، وهم بخلاء جدًّا لا يسمحون لنا بالأكل من طعامهم، ولن يأبهوا لموتنا جوعًا، رغم سرعتنا في الهرب إلا أنهم يخترعون أشياء قاتلة، نموت بمجرد شمها".

مطّت جناحيها الرهيفين، وتأكدت أن العمالقة ما هم إلا مخلوقات مسالمة ظلموها طويلًا، وابتسمت ابتسامة تسخر فيها من كل الأوهام التي قيلت وما تزال، ثم بدأت تتحرك يمينًا ويسارًا على ظهر الكوب، أحسّت بالحرية الكاملة وقررت أنها لن تعود إلى الوكر اليوم، لا مساءً ولا صباحًا، وربما لن تعود أبدًا، إذ استحلت العيش داخل الكوب، ثم صارت تطنطن بجناحيها في سرور، ولم تلحظ ذلك الشيء الضخم الذي امتد ليحمل الكوب بعنف، وكانت لأول مرة منذ ولادتها في مواجهة

مع المخلوق الضخم، واسترجعت كل تلك الأحاجي، ووجه جدتها المتجعد وهو يجتر ذكريات أليمة.

قالت في نفسها، لا.. إنه ضخم نعم، ولكن لن يؤذيني، ولدقيقة كاملة ظلت تحملق داخل عيني ذلك المخلوق الضخم، كانت تنتظر ردة فعله لتتأكد، وتفاجأت بنظرة القرف التي بدأت ترتسم على تلك العيون، ثم ارتفعت الكأس عاليًا وهوت على الأرض متشظيةً إلى قطع صغيرة من الزجاج، ومع الزجاج تناثرت أجزاء الذبابة الصغيرة، وما زالت عيناها رغم انطفاء نورهما تحتفظان بنظرة عميقة لذلك المخلوق، ملؤها الدهشة والحيرة.

وفي المساء كانت جَدَّةٌ مكرمشة الوجه، تحكي لصغارٍ يحلمون بالتحليق خارج الوكر عن تلك الذبابة الصغيرة، وجزمت أنها لم تعُد لأن مخلوقًا ضخمًا حطمها بيديه، أو رش عليها شيئًا قتلها في لحظتها. فكان الصغار بين مصدق وبين مكذب، يضحكون خفية ويتغامزون، ويشير أحدهم إلى الآخر بأنه سيطير غدًا خارج الوكر.

الجنازة

قبل أن يُتوفى جارنا طلب منا أن ندفنه بالقرب من جده، كانت تلك وصيته الأخيرة قبل أن يشهق ويموت، حملناه في موكب مهيب إلى المقابر، صلينا عليه على عجالة ثم حملناه على أكتافنا ماشين نحو قبر جده، آملين أن نجد مساحة لحفر قبر، ولكن لم يكن هناك مكان، فجده الذي مات قبل عشرات السنين كان في الوسط تمامًا، تحيطه مجموعة كبيرة من القبور المتلاصقة بعناية، ما يوحي أن هذه المقابر قد أخذت كفايتها من أجساد البشر، وربما تبدأ في لفظهم قريبًا.

لا يوجد مكان لكن لا نستطيع أن نكسر بوعدنا للرجل، سندفنه بالقرب من جده مهما كلف الأمر، قمنا بإحضار المعاول وبدأنا في حفر أحد القبور القديمة، سنخرج عظام الرجل وندفنها في حفرة واحدة بعيدة عن أعين حراس المقبرة، لكن ما إن بدأن الحفر حتى فاجأنا رجل عجوز حي داخل القبر، قال منزعجًا وهو يبعد الكفن المتسخ عن وجهه: عشان كدا أنا ما مت كويس، عارف بجوا ناس خسيسين زيكم ويطلعوني من القبر، يلا أمشوا من هنا؟

ثم نام في قبره من جديد، أما نحن فلم نستطع الحراك، كانت أرجلنا قد تيبست مكانها من شدة الرعب، وكان بعض الرجال الذين نحسبهم صناديد قد بدؤوا بالتبول على أنفسهم، وبعد أن كبرنا وحوقلنا وتمالكنا أنفسنا أهلنا التراب على القبر من جديد، وقررنا أن ندفن جارنا في مكان بعيد عن جده، وقبل أن نحمله على أكتافنا، تفاجأنا به يزيح الكفن ويقول: أنا عشان كدا ما مت ليكم زي الناس، عارف الحركات دي كويس، عرفتكم لن تدفنوني قرب جدي يا ملاعين يا كذابين.

هذه المرة كان الأمر يفوق احتمال القلوب، فجرى كل من حولي في اتجاه مختلف، كانوا هلعين يجرون على غير هدى، أما أنا فشعرت أن رجليَّ قد غرستا عميقًا داخل الأرض، وظللت للحظات أحدق إلى الرجل، وما أن أحسست بأني بدأت أستعيد عافيتي غضبت بشدة، وأمسكت الرجل من تلابيب كفنه وقلت: انتوا حكايتكم شنو، ما عاوزين تموتوا ليه، شنو كل مرة واحد داير ينظر لينا، يازول لن ندفنك قرب جدك، والله لو جدك جاء هنا وقال أدفنوه قربي لن ندفنك.

وفي تلك اللحظة، كانت هناك يد خشنة تربت على كتفي وتقول: عليك الله يا ولدي أدفنو جمبي.

مدينة بشير.

في هذه القرية البعيدة والنائية، لا أحد يعرف ما هي الحكومة، والكثير من الناس هنا لم يسمعوا قط عن العاصمة، ولا عن الطريق

المؤدية إليها، يعتقدون أن هذا العالم ليس سوى قرى كثيرة بعيدة عن بعضها، يحتاج المرء للوصول إليها إلى بغل نشيط وطولة بال، يعيشون هنا منعزلين تمامًا عن العالم الخارجي، بعضهم يولدون ويموتون وهم يظنون أن الجبل الموجود خلف القرية هو أبعد مكان في الوجود وهو مكان خطر، لا أحد يذهب إلى هناك ويعود حيًّا، فكان ذلك المكان هو الجحيم عندهم، يعيش أهل هذه القرية البعيدة والنائية فقط على زراعة المحاصيل وتربية المواشي، يشربون حليبها ويأكلون لحومها، لكنهم كانوا يملكون السلاح، بلا تراخيص أو تصديقات، بل إنهم يظنون امتلاك السلاح مثل امتلاك بقرة سمينة، أو امتلاك أرض زراعية خصبة.

وذات يوم بينما كان بشير الشاب اليافع يحاول الوصول إلى القرية القابعة خلف الجبل، لجلب بعض قطع السلاح لإخوته الذين أُعلن بلوغهم الحلم قبل أيام، ضل الطريق تمامًا، بل إنه فقد إحساسه القوي بالاتجاهات والنجوم، وقرَّر بينه وبين نفسه أنه هالك لا محالة، فهذه الأرض لا يعلم عنها شيئًا، هي بالنسبة له شيء مجهول وبعيد، ظل بشير يسير من غير هدى لأيام، وعندما يقابله بعض التجار في الطريق كان يرفض رفقتهم ولكنه يكتفي بأخذ الطعام والماء، وبعد شهر بالتمام وصل بشير إلى العاصمة كأول رجل من تلك القرية يطأ الأسفلت وتُبهر أضواء المدينة عينيه الصغيرتين، أما القرية فإنها ظلت كما هي، كأي قرية أخرى بعيدة ونائية تفقد أحد شبابها الذين يخرجون ولا يعودون، فيقيمون لهم سرادق العزاء بسرعة، فهلاك المفقودين شيء مؤكَّد، وتأتي

بعض النسوة من القرى القريبة لتنشيط البكاء أول يوم، ويطلقون الكثير من الذخيرة في الهواء، وبعد أيام قلائل يعود كل شيء كما كان، وأما إخوة بشير الصغار فقد حصلوا على سلاحهم، لقد كانت أفضل هدية يتلقونها في حياتهم، أفضل حتى من الألعاب التي تصنعها لهم الجدَّات في الأعياد.

وبعد خمس سنوات، بينما كان أهل القرية يستعدون لموسم أعياد الحصاد، جاء بشير على دراجة نارية، يحمل جوالًا كبيرًا خلف ظهره، كان يقود بسرعة رهيبة مخترقًا صدر القرية، توقف كل شيء، توقف الاحتفال وقطف الثمار، فقد عاد بشير بعد غيبة طويلة، بعد أن ظنوا أنه مات خلف الجبل حيث لا أحد يعرف كيف يعود، إلا القلة، لكنه عاد، كان مغبرًا، أشعث وطويل اللحية، يبدو خائفًا من شيء ما، وكان لا يكف عن قول: إنهم قادمون لا محالة.

كان شيخ القرية ووالده لا يكفان عن سؤاله من هم؟ فكان لا يجيب أحدًا، ولم يمر أسبوع كامل بعد عودة بشير حتى جاءت دورية شرطة إلى القرية، ولا أحد في القرية يعرف شيئًا عن الشرطة، كان الخبر الذي تناقله الناس أن رجالًا مسلحين نزلوا بالقرية، فكان ذلك انذارًا للجميع، فخرجوا حاملين بنادقهم الرشاشة على أكتافهم، كان لديهم من السلاح ما هو أكثر وأقوى مما لدى رجال الشرطة، ووقفوا جميعا

شاهرين أسلحتهم، قال الضابط بعد أن تنحنح وتجول بنظراته بين الرجال: من المسؤول هنا؟

ومن بين جمع الرجال الواقفين خرج شيخ القرية، يبدو رجلًا وقورًا جدًّا، يتكئ على عصاته ويمشي على مهل، قال مخاطبًا الضابط من خلف شاربه الكث: من أنتم؟

نظر الضابط طويلًا إلى الشيخ، عرف من خلال هذه الهيئة الماثلة أمامه أن لا شيء سيمر كما يريد، لكنه تنحنح مجددًا وفتح فمه قائلًا:

– نحن الشرطة، نريد أن نقبض على ابنكم بشير، إنه متهم بأكل أموال الحكومة.

قال الشيخ متعمدًا التكرار:

– من أنت؟ أخبرني مجددًا لم أفهم.

أحس الضابط بالضجر، ولولا أنه لا يعرف سابقة للشيخ لكان قد اعتقله أول واحد:

– أنا القانون، وأريد بشير، لأنه مطلوب للعدالة.

ويبدوا أن الشيخ لم يفهم ما يحاول الشرطي قوله، لكنه أخبره بصريح العبارة:

– إن كنتم تبحثون عن ثأركم من ابننا لأنه قتل واحدًا من قريتكم فلا بأس، نحن مع الحق، لكن ما تتحدثون عنه نحن لا نعرفه،

لا يوجد رجل على وجه هذه الأرض يستطيع أن يقتلع واحدًا من بيننا بتهمة لم نعهدها في هذه الأرجاء، سنشرب دمه قبل أن يمس شعرة واحدة من أحدنا، إن كانت قريتكم بعيدة فيمكنكم المبيت على أن تكونوا مسالمين.

ساور الضابط شك أن الشيخ يحاول أن يتستر على بشير فأشهر سلاحه، وأشهر كل العساكر سلاحهم في وجوه رجال القرية، ولكن، وخلال لحظات، كان المكان كله يعج بمقاتلين ملثمين، يحمل الواحد فيهم سلاحًا يفوق ذلك الذي لدى الضابط، أحس رجال الشرطة بالفزع، وغادروا المكان على عجالة، ولكنهم عادوا بعد أسبوع أكثر عدة وعتاد، يقودهم مسؤول كبير، ولكنه كان أكثر حكمة، فقد طلب من العساكر أن يظلوا بعيدين، وطلب أن يجلس إلى شيخ القرية وبشير ووالده وكبار القرية في اجتماع مقلق، وبعد أن ارتشف المسؤول رشفة طويلة من كوب الخمر البلدي الذي قدم إليه قال:

- هل تعلم يا شيخ ما معنى أن تعارض أمر الحكومة والقانون؟

وفي تلك اللحظة، كان الشيخ قد بلغ مداه من الضجر بهؤلاء المتطفلين، الذين يأتون إلى قرى الناس ويطلبون كأنهم آلهة حجرية قديمة متعطشة إلى الفداء، وقال:

- أنتم أتيتم إلينا، نحن لا نعرفكم ولا نعرف ما هي الحكومة، ليس لأحد سلطة علينا، نحن نعيش هنا منذ سنوات طويلة، ولم

نزكَم من قبل بالأرجاء، نحن نقبل أن تسكنوا بقُربنا، نقبل أن نعطيكم حليبنا بالمجان، نعطيكم اللحم، لكن أن تقفوا أمامنا فجأة، وتطلبوا أحدًا من بيننا لتقتادوه بعيدًا، هذا لن يحدث، هل تظنوننا معتوهين؟ مهما يحدث فلن نتهاون معكم، سنقاتلكم حتى آخر رجل في القرية، وعندما يموت رجال القرية، ستقاتلكم النساء بلا هوادة، وأطفالنا سيقاتلونكم، وعندما نموت جميعًا، حينها فقط يمكنكم أن تأخذوا جثة من تريدون.

وبدا على الرجل المسؤول الذي بدأ السكر يغير وعيه أنه لم يفهم شيئًا مما قيل، وقال بحدة للشيخ:

- لن نرحل دون بشير.

وقف شيخ القرية منتصبًا وقال:

- لقد أمهلناكم كثيرًا، عندما تختفي الشمس خلف ذلك الجبل، سيخرج مقاتلونا ملثمين ومسلحين، ولن أحول بينهم وبين قطع رقابكم.

ويبدو أن التهديد الذي طرق أذني المسؤول قد بلغ قلبه، فجعله يهتز رعبًا، ومن فوره عاد إلى أدراجه عازمًا على قفل ملف القضية إلى الأبد.

ولأن بشير عاش خمس سنوات في العاصمة، فقد عرف الكثير، تعلم القراءة والكتابة، تعلم قيادة الدراجات والسيارات، صار أكثر استنارة من أي شخص في القرية، لذلك كان يعرف كيف سيدير قريته وماذا ينقصها لتصير مكانًا جيدًا ليعيش بقية حياته محبوسًا فيه، فقام ببناء مدرسة كبيرة، كان يُعلِّم فيها الأطفال والشباب القراءة والكتابة، لكن إضافة إلى ذلك فقد علَّمهم الكثير عن الحكومة، وكيف يمكن للموظف الحكومي أن ينهب الكثير من المال دون أن يعلم عنه أحد؟ وكان كل عام يرسل خمسة شبان إلى العاصمة ليتقدموا بطلب للعمل موظفين للحكومة، ويقومون على حين غفلة من المسؤولين بنهب الكثير من المال والعودة إلى القرية، وخلال ثلاثة عقود كانت القرية قد تغيرت تمامًا، وتحولت إلى مدينة كبيرة فيها مستشفيات ودور سينما ومراكز خدمية، والكثير من المال، وعند ذلك سماها أهلها بمدينة بشير، واعتمدتها الحكومة مدينةً ناشئة ومتطورة.

السيد المحترم

في صباح ذلك اليوم

كان الجو صحوًا، صحوًا جدًّا، جدًّا.

استيقظ السيد المحترم، الموظف السابق بالهيئة القومية للكهرباء، وفتح نافذة غرفته المطلة على الشارع الترابي، فوجد أن الماء قد روى الشارع تمامًا، ورأى بعض الصبية يلعبون الكرة في الطين، انشرح صدره للمنظر، وتمنى من داخله أن يستمر هذا الطقس العجيب إلى الأبد، فهو لا يحدث إلا مرة في العام، على كل حال فإن مزاج السيد المحترم منعدل إلى حد بعيد، لبس جلبابًا أبيض ناصعًا، وعمة في طول ثمانية أمتار، ومن بين ستة مراكيب، اختار مركوبًا ينفع في مثل هذه المقابلات، التي يظنها مهمة إلى حد بعيد، ثم خرج قاصدًا مصلحة التأمين الصحي.

جلس السيد المحترم في كرسي الحافلة الملازم للشباك، لقد أراد أن يمتع عينيه بذلك المنظر الخلاب الذي صنعه المطر، حيث الماء يملأ المجاري حتى تفيض، أعجبه منظر الحافلة التي غرقت في المجرى الكبير المغطى بالماء للتو، وعندما رأى صاحب الحافلة وهو يقلب كفيه على

ما أنفق فيها، أطلق ضحكة مجلجلة، أصابت الكمساري بالهلع، وتذكَّر أنه لم يخلص تعرفة الركوب بعد.

فرقع الكمساري بأصبعه فمد اليه السيد المحترم جنيهًا مُهترئًا، لكن الكمساري لم يعجبه الجنيه فأبدى امتعاضه، وقال: أنا لا أقبل مثل هذه العملة، لو سمحت خذ جنيهك وأعطني جنيهًا آخر.

شعر السيد المحترم بغضب شديد، لقد عكر الكمساري صفو مزاجه بهذا الكلام، فقال: والله هذه عملة بلدك يا أستاذ، لو أننا خواجات لأعطيتك دولارًا قطنيًّا.

بعدها أحس السيد المحترم بالحر الشديد، ثم باغتته أشعة الشمس بالشباك، فالتفت ناظرًا نحو الخارج ليشاهد ما يحدث، كانت الشمس قد انتصرت في معركتها ضد الغيوم أخيرًا، وقد أرسلت أشعتها الحارقة نحو الأرض وكأنها تنوي أن تحرقها عن أخرها، وعاد الطقس إلى حقيقته الأولى، وعادت معه الأخلاق التي غلفها أصحابها ببرودة الجو.

الساعة 10:00 صباحًا..

عندما دخل السيد المحترم إلى مصلحة التأمين الصحي، وكانت عبارة عن مبنى مظلم وقاتم قليل الإضاءة، أخرج من جيبه فاتورة صغيرة عليها قائمة بالكثير من الأدوية، أدوية يحتاجها كثيرًا ليظل على قيد الحياة، كان أول من قابله عند المدخل، رجل نحيف جدًّا، نحيف لدرجة أنه لا يحتل من كرسيه الجالس عليه إلا الربع، أمامه منضدة كبيرة ليس عليها

أوراق، فقط كوب قهوة مضى عليه ساعات طويلة في هذا المكان، ولوحة صغيرة مكتوب عليها بقلم حبر جاف، وبخط رديء: الاستقبال.

وقبل أن ينطق السيد المحترم بكلمة، باغته الرجل النحيف بصوته الغريب قائلًا:

- إن كنت تريد أن تستخرج دفترًا للتأمين، تعالَ غدًا، أو بعد غد، ربما لو أتيت الشهر القادم سيكون أفضل، طيب ما رأيك بالعام المقبل، سيكون أمرًا استثنائيًّا.

قال السيد المحترم:

- لا لا، لا أريد دفتر التأمين، أريد فقط ختمًا على هذه الورقة، إنها قديمة، مضى عليها شهر، يجب أن تكون مختومة بختمكم.

قاطعه الرجل النحيف قائلًا:

- أه أعرف أعرف، عموما الموظفة لم تأتِ بعد، اجلس في تلك الكراسي وعندما تأتي الموظفة يمكنك أن تحصل على الختم.

أحس الرجل المحترم بالدهشة، فكيف للموظفة ألا تأتي والساعة الآن قد تخطت العاشرة، هذا تسيب غير مقبول بالنسبة له، خاصة وأنه عندما كان موظفًا في الهيئة القومية للكهرباء، لا يتأخر عن الساعة السابعة والنصف لأي ظرف كان.

شعر بانزعاج شديد، وسخونة المكان زادت الأمر سوءا، وازداد عليه الضجر، فأحنى رأسه الى الخلف ونام.

الساعة **11:00** صباحًا.

استيقظ السيد المحترم من النوم فزعًا، تحسس عمته فوجدها في مكانها، واطمأن أكثر عندما وجد الورقة ما تزال في جيبه، تلفت حوله فلم يجد أحد، ويبدو أن الموظفة لم تأتِ بعد، قام من مكانه قاصدًا الرجل النحيف، وسأله غاضبًا:

– لماذا لم تأتِ الموظفة إلى الآن؟

-لقد أتت.

-لم أرَها تدخل، طيب أين هي الآن؟

-هذا وقت الفطور، لقد ذهبت لتفطر، اجلس مكانك وانتظرها.

عاد السيد المحترم إلى مكانه، كان غاضبًا أكثر من ذي قبل، يتحسر كلما تذكر أن الموظفة أتت وهو نائم، ثم خرجت وهو نائم، لماذا لم يوقظه أحد، هذا الرجل النحيف عديم الفائدة.

بعد برهة من الانتظار، أحس السيد المحترم بأن مثانته ستنفجر الآن، بدأ يتململ في جلسته، ثم صار يئن كأنه يشعر بألم عميق، ثم استسلم، جرى بسرعة ناحية الحمامات، وهي في مكان ما مظلم وبعيد هناك.

الساعة **11:30** صباحًا..

لم يلحظ الرجل النحيف أن عيني السيد المحترم قد بدأتا تتورمان من الألم، وهو يخبره بأن الموظفة قد أتت في فترة غيابه ثم خرجت من مكتبها وذهبت إلى حمام السيدات، كان ذلك قبل ربع ساعة تمامًا.

احمرت عينا السيد المحترم كما لم تحمرا من قبل، وأصبح لا يرى جيدًا، وكل شيء حوله صار أحمر، حتى عندما نظر إلى الرجل النحيف وجده أحمر، لكنه تمالَكَ نفسه قليلًا، وعاد أدراجه وارتمى في جوف الكرسي ونام نومة القتيل، لم يَرَ في نومته تلك شيئًا، كان فقط يعوم في ظلام دامس.

الساعة 1:00 مساء

استيقظ السيد المحترم من نومه فزعًا مرة أخرى، وهذه المرة لم يتحسس عمته ولا ورقته، ولكنه ذهب مباشرة نحو مكتب الموظفة، تأكد أنها لم تعد هذه المرة أيضًا.

قال له الرجل النحيف عندما رآه قادمًا نحوه:

– كنت أريد أن أوقظك عندما أتت، لكنك كنت نائمًا كالميت.

رد عليه السيد المحترم غاضبًا:

– تموت ناقص عمر يا كلب.

-رجاء لا داعي للغلط.

– غلط؟ الغلط أنت والله وموظفتك المشؤومة، أنا أصلًا أشك أن في هذا المكان البائس يوجد موظف غيرك.

-المهم، هي الآن ذهبت لتصلي الظهر، انتظرها، لن تتأخر هذه المرة.

الساعة 2:30 مساء..

أخيرًا جاءت الموظفة التي كان ينتظرها السيد المحترم تمشي كملكة قديمة، تحمل في يدها مسبحة بثلاث وثلاثين خرزة، تتمتم بكلمات لم يفهمها السيد المحترم، لكنه لم يزد أن يسألها:

– أنت الموظفة؟

-نعم أنا.

تبعها إلى داخل المكتب، ثم أخرج من جيبه ورقة التأمين ووضعها أمامها وقال:

– أرجوك، أريد ختمكم الموقر في هذا المكان، هنا بالضبط كما ترين.

-آسفة، لقد انتهى الدوام، كنت أتمنى أن أخدمك، لكن لا وقت لدي، عليّ الذهاب إلى البيت بسرعة.

ربما علينا أن نسرد ما حدث بعد ذلك بدقة، فالأمر كان مثيرًا للدهشة، فالسيد المحترم لم يعد محترمًا، من العبث الآن أن نسميه سيدًا

محترمًا، إضافة الى ذلك فإن الغضب الذي سيطر عليه لا يمكن أن تصفه الكلمات، لقد غضب لدرجة أنه كتب قصيدة في سره عن الغضب تقول:

كم موظفة مزقتني!

كما مزَّق الطفل غيمة!

تألمت ولم أتعلم. ولم أحمِ نجمه

من الغيم خلف السياج القصي

لاحظ السيد الذي لم يعد محترمًا وجود سكين مطبخ كبيرة وحادة، موضوعة على جانب المكتب فوق كومة من الجرجير، حمل السكين بيده، وبصعوبة بالغة قال لها:

– مدي يدك.

ولأول مرة، بدأت ملامح تلك الفتاة الموظفة تتضح أمامه، فتاة قصيرة جدًّا، على وجهها الكثير من البودرة البيضاء، وكانت لتوها قد بدأت ترتجف، رأت السكين بين يدي رجل عجوز غاضب، فأوقعت السبحة من يدها، ثم مدت يدها في حذر شديد.

ربما كانت تظن أن السيد الذي لم يعد محترمًا، قد جُنَّ، وسيقطع يدها، لكنه لم يفعل، لقد قطع رأسها من مكانه، بينما يدها ممدودة أمامها، قطع رقبتها وهو يضحك ملء فيه، وأمسك رأسها بيده وألقاه

بعيدًا، وأخرج الورقة، ثم أخذ الختم بيده فلاحظ أن حبره قليل، لكنه لم يتعب نفسه بالتفكير ووضع الختم في دم الموظفة ثم وضعه على الورقة.

ابتسم.. جن.. ثم هرب..

في مساء اليوم التالي..

السيد المحترم الذي لم يعد محترمًا يقبع الآن خلف جدران السجن، لا يدري ما سيفعله به رجال القانون، لكنه كان مستكينًا في جلسته، يداعب بيده صرصورًا مقلوبًا على ظهره، بينما بدأ الظلام يخيم شيئًا فشيئًا، والمكان يشتد ظلمة.

كان العساكر بين الفينة والأخرى يسمعون صوت ضحكات، ضحكات لها صدى.

تحرُّش

أنا الآن داخل حلم، أستطيع أن أصبح طويلًا أو قصيرًا، أستطيع أن أصير في حجم النملة، باختصار شديد أستطيع أن أفعل كل ما أريده، وبما أني أحلم، وأدري أني أحلم، فأنا غير مسؤول عن تصرفاتي، وهذا هو ما يميز الأحلام.

عندما أنظر إلى يدي، أمرها أن تصبح طويلة، فتمتد أمامي إلى ما لا نهاية، أتخيلها تمسك شيئًا ثم تعود تمسك بعلبة نوتيلا لذيذة، فآكلها، وآمر لساني أن يتذوقها، فأحس بطعم الشوكولاتة يدغدغ مؤخرة لساني وتملأ رائحتها أنفي.

هذا ما يحدث معي يوميًّا عندما أخلد للنوم، لكن في تلك الليلة قفز إلى تفكيري سؤال خطير، وهو لماذا لم أتعاطَ الممنوعات قط داخل الحلم من قبل، فكرت، يا لغبائي! لا أحد في هذا العالم الخيالي يستطيع أن يحاسبني، وما إن نمت حتى ظهر أمامي بار كبير يتوسط منازل الحي.

دخلت البار وأنا أشعر بسعادة عارمة، أخيرًا ستتسنى لي الفرصة لفعل معصية ما دون أن أشعر بالخزي والذنب، أو دون أن أخشى

مداهمة رجال الشرطة في بحثهم الدائم عن المذنبين، يا لغبائي وتفكيري المتأخر!

جلست على أول طاولة على اليمين، كانت فارغة تمامًا، فجعلتها تضج بالأشياء، مثل الهاتف الحديث الذي لم أحصل عليه قط في حياتي، أخذته مباشرة لأتفحص سرعة النت فوجدتها لا نهائية، كانت هناك أيضًا زجاجة عطر غال الثمن، لطالما تمنيتُ أن أقتنيه، لكن لم أفعل لأني معدم.

ثم القليل من الأشياء الأخرى التي جعلت ثمن الطاولة ينازع ثمن زجاجات الخمر المعروضة على الرفوف، ما ضايقني هو أنه لا يوجد نادل في هذا البار، وفي لافتة كبيرة معلقة على أحد الرفوف كتبت عبارة (الخدمة ذاتية) وبقربها عبارة (ابتسم أنت في مواجهة كاميراتنا)، لم يعجبني ذلك، بل تعكر مزاجي قليلًا، وعلى الفور تخيلت نادلة أجنبية حسناء، فخرجت من بين زجاجات الخمر ووقفت أمامي مبتسمة، طلبت منها أن تأتيني بزجاجتين من النبيذ المُعتَّق، في الحقيقة لم أكن أدري ما هو النبيذ المعتق بالضبط، ولكن هذه العبارة سمعتها كثيرًا في الأفلام.

شربت الخمر، وأنا لم أشربه من قبل، وبذلك كان عليّ أن أتخيل النكهة المحرمة، وكانت مزيجًا من طعم بعض المشروبات الغازية، بالإضافة الى عصير الليمون وشراب الحلبة بالقرنفل.

ثم خرجتُ من البار وأنا أترنح، وكنت قد فقدتُ السيطرة تمامًا على مجريات الحلم، لم أعد أستطيع أن أفعل ما يحلو لي، بل إني لم أستطع حتى أن أمنع نفسي عن الترنح، أو أن أطلب سيارة فاخرة لتقلني حيث أريد، صار كل شيء حقيقيًا، وكأنني قد فقت وانخرطت في حياتي اليومية العادية، لكني أعلم أني أحلم، متأكد تمامًا من ذلك، لذلك لم أخف، وواصلت المسير حتى وصلت إلى موقف الحافلات، وركبت الحافلة في هدوء، لم يكن هناك الكثير من الركاب، فقط راكب واحد في الأمام وفتاة وحيدة في الخلف.

فجأة عادت الفكرة تطرق رأسي من جديد، لقد جربت كل شيء في الحلم، حتى الخمر، لكن ماذا عن النساء؟ لم أجرب مثلًا أن أُقبِّل فتاة من قبل، أو أتحسس يدها، وعلى الفور تخطيت كل المقاعد الفارغة وجلست بالقرب من الفتاة، كانت منشغلة بهاتفها المحمول وتبتسم إلى الشاشة.

كنتُ مطمئنًّا للغاية وأنا أمد يدي لألمس جسدها، فأنا في حلم، لا شيء يمكن أن يخيفني أو أعجز عن فعله، حتى وإن فقدتُ السيطرة عليه، لكن، وعندما لمست جسدها لم أشعر بشيء جيد، فصراخها القوي أفقدني صوابي على الفور، ومن ثم عندما رفعت رأسي كان هناك الكثير من رجال الشرطة يطوقون المكان، تمنيت لحظتها أن تنشق الأرض وتبلعني، أو على الأقل أن أستيقظ من النوم، فهذا قد صار

كابوسًا وليس حلمًا، ضربت رأسي بيدي، ثم لطمت وجهي وقرصت جلد يدي، كل ذلك لم يفلح، بل حتى لطم العساكر لم يوقظني، ما نفعني ساعتها أني كنتُ ثملًا؛ لذلك لم أحس بأي ألم.

قادوني إلى مبنى كبير، وداخل ذلك المبنى كانت هناك قاعة متوسطة الحجم، تتوسطها طاولة اجتماعات كبيرة يتحلق حولها بعض الرجال المهمين، وعلى رأس الطاولة رجل سمين، ما إن رآني حتى صاح (من هذا؟)

رد عليه رجل الشرطة قائلًا: (لقد كان يتحرش بابنتكم الفاضلة يا سيدي الوزير.)

انتفخ وجه الرجل من الغضب وقال: (تحرش بها؟ لم تعد فاضلة إذًا).

ثم اعتدل واقفًا وفي يده سوط طويل فقلت مرعوبًا: (هل ستضربني؟)

قال مستغربًا: (ولماذا سأضربك الآن؟)

قلت: (لأنك تحمل سوطًا).

قال: (أنا مسؤول، إذا أنا جلاد، والجلاد معروف، يحمل السوط.)

قلت: (اهاا طيب.)

صاح أحدهم (لنحاكمه محاكمة عادلة)، وعلى الفور تغير المكان، واختفت الطاولة الكبيرة تحت الأرض، وتغير لون الجدران، ثم ظهر جمهور من الناس يجلسون في الخلف على كراسي من الخشب، وفي الأمام كانت هناك منصة كبيرة يجلس عليها قاضٍ نحيف أشيب الشعر، وعلى يمينه قفص صغير الحجم وضعوني داخله.

في هذا الحلم اللعين كان التحرش جريمة يعاقب عليها القانون بالإعدام، وجرائم القتل والسرقة فقد كانت تتراوح عقوبتها ما بين الجلد والغرامة، أما الاغتصاب فلم تكن له عقوبة على الإطلاق، هذا ما أخبرني به المحامي الذي تطوع لإنقاذي من هذا المأزق.

ثم بدأ القاضي يسألني: (لماذا تحرشت بابنة الوزير؟)

لحظتها لم أجد ما أقوله، لم يكن لدي أدنى فكرة عما يقال في مثل هذه المواقف، فقلت له: (لأنها ببساطة ابنة مسؤول).

اندهش القاضي وقال معترضًا: (هذا كلام غير منطقي).

قلت له: (أنتم هنا تعدمون المتحرش وتعفون عن المغتصب، دا المنطقي يعني!).

ثم انبرى المحامي مُحرَجًا محاولًا الشرح للمحكمة صحة كلامي، وعلاقة التحرش الوثيقة بوظيفة أب الضحية، وأن حسب الإحصاءات

فإن بنات المسؤولين هن الأكثر تعرضًا للتحرش هذه الأيام، وحسب تعبيره: (سوقهن في تحسن ملحوظ يا سيادة القاضي).

لحظتها تذكرت الهاتف المحمول، أخرجته من جيبي، ونشرت تغريدة على مواقع التواصل الاجتماعي تقول: (سبب التحرش الأول هذه الأيام هو وظيفة الآباء، وأنا كرجل سليم في هذا الحلم البائس ستثيرني ابنة الوزير قبل ابنة الغفير، لماذا تلومون الشباب؟)

شارك أحدهم التغريدة وقال مُعقبًا: (لا توجد علاقة بين الفتاة الضحية ومهنة والدها، أعرف ابنة فراش تعرضت للتحرش من قبل، فهل لمهنة والدها علاقة بالأمر؟ يا سيدي حتى بنات الموظفين يتعرضن للتحرش، وأعرف رجلًا عاطلًا عن العمل تعرضت ابنته للتحرش من قبل، علينا أن نكون أكثر عقلانية ونحترم شخصية الفتاة بغض النظر عن مهنة والدها).

وانقسم الناس بين مؤيد ومعارض للتغريدة، بعضهم هاجمني والبعض الآخر هاجم الفتاة ومهنة والدها، ثم ما لبث أن تحول الموضوع إلى قضية رأي عام.

أما داخل المحكمة فقد ضرب القاضي بمطرقته على الطاولة صائحًا: (إعدام). وفجأة استيقظت.

أخذت نفسًا عميقًا وشعرت براحة عظيمة، أخيرًا عدتُ إلى الواقع، الواقع الذي أنا فيه حر طليق.

الواقع الذي لم أشرب فيه شربة خمر من قبل، العالم الذي لم أتحرش فيه بفتاة، ولم أتخيل أني أفعل ذلك حتى، ولكني لأتفادى المشكلات مستقبلًا قررتُ ألا أجلس بالقرب من فتاة في المواصلات، وقررت أن هذا المبدأ لا يمكن التنازل عنه.

خرجت من المنزل وأنا أحمل حقيبتي الجلدية، وفي أول حافلة توقفت أمامي صعدت في هدوء، كانت الحافلة ممتلئة عن آخرها، إلا مقعدًا وحيدًا تجلس بقربه فتاة، في مثل هذه الظروف يضطر أحدنا أحيانًا للتنازل عن القليل من مبادئه، فالتشبث بالمبادئ أحيانًا ربما يُفضي بك الى الخسارة، لو أني نزلت من الحافلة فورًا لأبحث عن حافلة أخرى، حتى لا أجلس بالقرب من فتاة، فلن أجد، وإن وجدت فقد أصل متأخرًا.

جلست بالقرب من الفتاة في هدوء، جلست وكأني أجلس فوق لوح من الثلج أخاف أن يلسع جسدي العاري، ولم ألتفت إليها على الإطلاق، بل إني حركت يدي للناحية الأخرى، رفعتها عاليًا كي تراها بوضوح، وتعلم مدى جديتي في عدم التحرش بها، واستمرت الحافلة في مسيرها السلحفائي.

كل هذا الوقت وأنا لم ألتفت ناحية الفتاة، لكن عندما شعرت بألم الرقبة حركت رأسي ناحيتها، ويا للهول، كانت تلك هي ذاتها الفتاة في الحلم، إنها ذات الفتاة التي تحرشت بها ليلة البارحة، إنها ابنة الوزير، هي

ذاتها من صرخت طالبة النجدة، لكني الآن لست أحلم، أنا أعرف متى أكون داخل حلم، لكن هل اختلط الأمر عليَّ يا ترى، هل أنا الآن أحلم بفتاة رأيتها البارحة في الواقع، أم أن حلم البارحة تحول إلى واقع؟

لملمتُ أنفاسي وتمالكت نفسي ثم سألتها: (أنت ابنة الوزير؟)

قالت مندهشة: (أجل أنا كذلك، كيف عرفت؟)

قلت: (ولماذا تركبين المواصلات؟)

قالت بامتعاض: (سيارة والدي معطلة.)

اعتدلت في جلستي مطمئنا، ثم وضعت يدي على فخذها وقلت (كما تعلمين، بنات الوزراء في هذا البلد لا يركبن المواصلات، أتمنى أن تتحسن أحوال سيارتكم في أقرب وقت).

النملة الأديبة

بدأت النملة الشابة س بكتابة مذكراتها منذ مدة ليست بالطويلة، واكتشفت أن لها قدرة عجيبة على صياغة الجمل الأدبية الرائعة، توقعت أن تنال استحسان الجمهور في مستعمرة النمل.

كانت تنكب على الورق ساعات طويلة، تكتب بأرجلها الستة، إذ إن لها ذكاء خارقًا يجعل في جوفها ستة قلوب نابضة، مكنها ذلك من كتابة روايتين وست مجموعات قصصية وديوان شعر واحد وستة مجلدات سيرة ذاتية.

كانت السيرة الذاتية التي وُضعت فيها خلاصة تجربتها الشابة في الحياة، هي أكثر ما أعجب النقاد في مستعمرة النمل، النقاد هنا صعاب المراس، لهم قرون استشعار طويلة وغليظة، قصار القامة لكن ألسنتهم طويلة، يتكلمون عن نَصٍّ صغير ساعات طويلة، حتى أن كاتب النص يصاب بالدهشة فيقول: ههه والله لم أقصد أن أتحدث عن مفهوم الواقعية السحرية بهذه الطريقة، ربما للوهلة الأولى انطوى النص على دلالات تمزج بين عناصر المتعين الوقائعي وعناصر المتعين الخرافي، لكن الحقيقة الأمر مختلف، كل ما هناك أن نملة جميلة قابلتني في معرض الكتاب، وصافحتها فأعجبتني فكتبت عنها، فقط..

المهم أن النملة س قررت أخيرًا وبعد تردد شديد أن تعرض تجربتها على ناقد مشهور، يعيش في مستعمرة في ركن قصي من حمام فاخر، وعندما اطلع الناقد على مؤلفات النملة الشابة س، أبدى إعجابه البالغ بجمالها، وتغزَّل كثيرًا بالشامة التي على خدها، ووعدها أن يعرض تجربتها على دور نشر أجنبية وكتاب ونقاد كبار.

سرعان ما ذاع صيت النملة الشابة الجميلة س، أصبحت خلال وقت وجيز من المرشحين لنيل جوائز أدبية عظيمة، أصبحت من المبشرين بالخلود الأبدي في مخيلة النمل الأدبية، وتقرَّر أن يُقام حفل تكريمي عظيم على شرف النملة الشابة س، واختير الحمام الفاخر مكانًا مناسبًا لتلك الاحتفالية العظيمة، وتم تركيب الصيوان الفاخر المقدم من أرقى محلات المناسبات في مستعمرة النمل، وفي اليوم المحدد عند الثامنة مساء كان الصيوان قد امتلأ تمامًا، رجال أعمال، طلاب جامعيون، فتيات حالمات، سيدات مجتمع، نقاد، كتاب، ورجل أمن واحد لمراقبة سير الأمور وكتابة تقرير مفصل.

تحفزت النملة الشابة سين، وهي تصعد الى المنصة حملت في يدها ورقة كانت مدسوسة بين أوراق كثيرة، ثم همت بقراءتها .. لكن وقبل أن تبدأ بالقراءة، انفتح باب الحمام، ودخلت أرجل غليظة ترتدي صندلًا قديمًا، تبعها جسد لرجل غليظ يحمل في فمه فرشاة ويبدو عليه النعاس الشديد، ودون أن ينظر الرجل تحت قدميه داس على الصيوان

المنصوب وسط الحمام، وتحطمت جميع النملات، وحدث ما يشبه مجزرة بشعة.

ماتت النملة الشابة س شهيدة قبل أن تعرض للعالم إنتاجها الأدبي، وماتت معها أحلام الجوائز العظيمة، ولكنها بالفعل، ستخلد في الذاكرة القريبة والبعيدة لسكان مستعمرات النمل المثقفين والمنفتحين، سيقام لها تمثال عظيم عند مدخل المستعمرة، ستقام على شرفها المأدبة العظيمة في أمسيات الخميس الجميلة، وسيأتي بعض المستثمرين ويطلقون اسمها على جائزة أدبية ضخمة، تجلب لهم بعض الشهرة والمال.

البئر

بدأ الأمر عندما قرَّر الجد العجوز أن يحفر بئرًا، كان الأمر مفاجئًا للناس، فالمكان الذي اختاره الجد لحفر البئر كان بعيدًا قليلًا عن بيته، تحت سفح الجبل الذي يظلل القرية من جهة الغرب، أي إنه لا حاجة له في حفرها هناك، لكنه لم يكن يبالي لكلام الناس، ولم يكن يجيب الناس عندما يسألونه عن مغزى حفر البئر، فقط كان يواصل طريقه نحو طرف القرية، وينزل معوله من على كتفه ثم يبدأ الحفر، وبعد أيام طويلة تُوفي الجد فجأة، بلا أي سبب معروف، لكن البعض خمن أنه عامل السن، وفي يوم وفاته اجتمع أحفاده الستة لتقسيم ميراثه، وفي أثناء التقسيم قادهم الحديث لذكر البئر التي بدأ الجد في حفرها، وتوصلوا في نهاية الأمر إلى أنهم مضطرون لمواصلة عمل الجد ومتابعة حفر البئر، فربما يكون هناك كنز مخفي تحت الأرض، وقد أحسَّ الجد بدنوِّ أجله فكان يريد أن يبصرهم بمكان كنزهم المدفون، وعلى ذلك الأمل حمل الأحفاد الستة معاولهم وذهبوا ليتموا حفر البئر، كانت البئر صغيرة للغاية مقارنة بالحدود التي وضعها الجد، كان عليهم أن يحفروا كثيرًا

عرضيًّا ورأسيًّا، وخلال أيام كانت الحدود التي وضعها الجد قد شملتها البئر وتوسعت قليلًا، كانت بئرًا عملاقة، بعرض مئتي متر وعمق عشرين مترًا، وبعد شهر من الحفر أُصيب الأحفاد بالإحباط ورموا المعاول وعادوا إلى بيوتهم.

ولم يمضِ أيام حتى جاء الوالي في زيارته التفقدية لقرى المنطقة، وأصيب بالدهشة عندما رأى البئر التي حُفرت في مكان غير ملائم لسبب لم يعرفه أحد، فأصدر الوالي أوامره أن تمد أنابيب الصرف الصحي من القرية إلى الحفرة، وبذلك بدأ مشروع عملاق يتكون في مخيلته، وهو أن يمد كل القرى في منطقته بأنابيب الصرف الصحي، وبذلك يكسب ثقة الناس والحكومة، وبالفعل جاءت الجرارات الكبيرة وعمال الصرف الصحي تجمهروا أمام البئر وبدؤوا عملًا دؤوبا، ولم يستمر العمل في البئر إلا لأيام قليلة، حيث أن ماكينات العمل تم نقلها إلى مكان بعيد، فقد جاءت تحذيرات الأرصاد الجوية قوية هذه المرة، وهي أن القرى في جهة الجبل مهددة بسيول غير مشهودة من قبل، فهرب جميع موظفو الصرف الصحي إلى بيوتهم في أطراف العاصمة، وعرفوا أن هذا المشروع الذي أطلقه المسؤول سيروح طي النسيان، لكن لم يكن هناك سيول، وكالعادة كان مكتب الأرصاد مخطئًا، فقد كان هناك سيل بسيط هبط من أعلى الجبل ونزل في البئر التي ما عادت ترى بالعين من فرط امتلائها بالماء، ولم يعد أحد يلقي لها

بالًا، لكن ذات يوم عند الصباح، خرجت جثة منتفخة لطفل من جوف البئر، وأول من أخرجه كان رجل يبحث عن قطيع من الغنم فقده هذا الصباح، تعالت صيحات الناس وهرع أهل الطفل إلى البئر، كان ابنهم الذي اختفى منذ أيام قد بدأت ملامحه بالتلاشي، عندما خرج قبل أيام بقصد الذهاب إلى الدكان، لم يكن يخطر ببال أحد أنه سياتي إلى هذا المكان، لذلك استقر الناس على البحث في السوق وجهة الطريق السفري فقط.

قرَّر الأهالي ردم تلك البئر مهما يكلِّفهم الأمر، قاموا بالاتصال بموظفي الصرف الصحي ليقوموا بشفط الماء من جوف البئر حتى يتسنَّى ردمها، لكن الموظف المسؤول رفض ذلك رفضًا تامًّا، وأخبرهم أن البئر مشروع حكومي لا يجوز للأهالي التصرف فيه إلا بإذن من الوالي، وعندما قاموا بمراسلة الوالي لم يصلهم أيُّ رد، انتظروا طويلًا بلا فائدة، فعقدوا اجتماعًا ضخمًا للتشاور، وتوصلوا في نهاية الأمر إلى أنهم في حاجة إلى سور كبير يحيط بالبئر، وبدؤوا في تنفيذ الأمر فورًا، وخلال يوم واحد أحاطوا البئر بكمية كبيرة من الأشواك والأشجار المقطوعة والأعمدة الطينية.

منذ أن بني السور والناس يشعرون ببعض القلق تجاه البئر، فالخريف في بداياته الآن، ولا أثر لمسؤولي الصرف الصحي، الذين بدا عليهم أنهم صرفوا النظر عن المشروع نهائيًّا، والوالي لا يرد على رسائلهم

المتخوفة، ولكن ذات مساء تُنذر سماؤه بالغرق، تعالت الأصوات الصارخة من جهة البئر، هرع الناس إلى هناك فوجدوا امرأة تسكب على رأسها التراب، وتقول إن أبناءها الثلاثة اختفوا منذ ليلة البارحة، ولا بد أنهم هنا في قاع هذه البئر اللعينة، ربط بعض الشباب خواصرهم بالحبال ثم نزلوا إلى قاع البئر، ولكنهم لم يعثروا على شيء، بل وجدوا الكثير من جثث المواشي التي كانت قد اختفت في الأيام الماضية، وفي نهار اليوم التالي اجتمع الكبار من رجال القرية تحت راكوبة صغيرة وسط السوق، وقرروا الرحيل من هذه القرية التي ما عادت آمنة كالسابق، فشبح الموت يحوم حول أطفالهم ومواشيهم، والحكومة ترفض أن تتصرف، وعند المساء كانت القرية خالية تمامًا، كل من فيها شد رحاله إلى المكان الجديد المقترح، بعيدًا عن الجبل والبئر، وفي الليل كانت البوم تنعق فوق عمران القرية المتهالكة، لا أحد الآن يعيش هناك.

بعد سنة كاملة عاد مشروع الصرف الصحي يطلُّ برأسه من جديد، عاد الوالي ليتفقد الآبار التي تم حفرها لغرض المشروع، وعندما وقف على البئر التي تحت الجبل تفاجأ أن القرية خالية تمامًا، لا أحد يسكنها إلا الهوام وبعض الماشية المنسية، لا أحد يعلم متى رحل هؤلاء الناس أو لماذا رحلوا، لكن الوالي كان رجلًا حصيفًا وذكيًّا، أو هكذا كان يظن نفسه، إذ قرر أن يعيد إلى المكان رونقه المفقود، وأصدر أوامره أن يحول المكان إلى حديقة للتصييف، وتنظف البئر وتسوى جوانبها بحيث تبدو

مثل بركة ماء سياحية ونظيفة، وأمر كذلك أن تحفر على مقربة منها بئر ماء ارتوازية لتملأ البئر عندما تنقص ماؤها.

اكتمل مشروع الحديقة بسرعة، وكان الأغنياء يأتون من جميع النواحي للتصييف هنا، يدفعون الكثير من المال مقابل الإقامة والأكل والتنزه، لكن، مع الأيام بدأت الخدمات تقل، بعض الأثرياء بدأ يتذمر من سوء الخدمة، فبعد تغيير المدير السابق لم يكن الجديد يلقي بالًا لأمر المنتزه، لكنه كان مهتمًّا بجمع المال، واهمال الخدمة، وسرعان ما نمت الحشائش على جنبات البئر، ومع الزمن هجر الناس المكان وأصبح منطقة خطرة مليئة بالسباع والهوام.

كانت السنوات كفيلة بأن تُنسي سكان القرى المجاورة أمر البئر، ولكن سرعان ما عادت الألسن تتداول سيرتها من جديد، فالمكان الذي تحول إلى غابة من أشجار السدر والحشائش، أصبح مخبئًا للوحوش الضارية، التي صارت تأكل المواشي التي ترعى قريبًا من الجبل، وهناك أخبار عن راعٍ أكلت السباع رأسه وتركت جسده للنسور الجارحة، وبعد مشاورات بين رؤوس تلك القرى، تم تكوين جيش صغير من المقاتلين الأشداء، وأرسلت كل قرية ما لديها من سلاح ناري لتجهيز ذلك الجيش المكون من ثلاثمئة رجل شاب، كانوا قوة لا يستهان بها، إذ إنهم خلال ساعات فقط، قتلوا ما يفوق المئة وخمسين وحشًا ما بين صغير وكبير، وشعروا بعظمة وزهو كبيرين، لكنهم أحسوا أن ما أنجزوه ليس كافيًا لتلك الهيبة التي كساهم بها الناس، إذ إن جيشًا كهذا لا بد أن يقاتل جيشًا آخر، على الأقل يقاتل جيش الحكومة،

ومن فورهم أصدروا بيانًا للتمرد، واتخذوا من البئر وما جاورها مخبئًا لهم، وتمركز القناصة فوق سفح الجبل، بحيث أصبح المكان خطرًا للغاية، أكثر من ذي قبل، وذاع صيت تلك الجماعة المتمردة حتى وصل خبرهم إلى الوالي.

أصدر الوالي بيانًا غاضبًا يدين فيه تلك المجموعة الإرهابية، ومن فوره قام بتحريك كتيبة من الجيش، وأمرها بالتوجه ناحية البئر وتصفية كل من يساند التمرد في تلك المنطقة، ولكن ولأن البلاد تمر بعصر الصحافة الذهبي، بدأت وسائل الإعلام بالتدخل، ووصفت الوالي بعديم المسؤولية لأنه يريد تدمير منطقة سياحية تعب هو نفسه في تأسيسها، ثم أنه لا يريد الالتفات لمطالب القرويين في تلك المناطق المهملة، كل ذلك جعل الوالي يتراجع عن أمره بتدمير المكان وقتل المتمردين، بل إنه دعاهم للجلوس إلى طاولة المفاوضات.

دام الحوار لشهور بغية التوصل إلى حل مشكلة النزاع، لكن خلال ذلك كان الجميع يصرف ببذح، يحضرون الاجتماعات أحيانًا ويتهربون أحايين أخرى، لكن هناك أمر واحد بات يعرفه الجميع، أن تلك البئر لن تختفي أبدًا.

رَجلٌ غريبٌ في المقهى

عند المساء عدتُ من جديد إلى المقهى، كانت الشمس الناعسة قد خلدت إلى نومها للتو، ثم صار الجو أكثر برودة، وكأنه كان ينتظر موت الضوء ليحل مكانه، أما الشحاذون حول المقهى فقد عمدوا إلى إشعال النيران والالتفاف حولها، في محاولة جيدة لاستجداء الدفء، أنا أدمنتُ شرب القهوة منذ زمن بعيد، أدمنتها لدرجة أني لا أُبارح المقهى إلا للنوم وقضاء الحاجة، كذلك لا يعنيني كثيرًا إن كان الظلام قد حل أم لا، ولا أحفل كثيرًا لأولئك الشحاذين، ولا لبردهم التافه، دخلت الى ذلك المبنى المهترئ، الذي اختار له صاحبه زاوية منعزلة عند طرف السوق، كان المكان هادئًا، وبسبب الإضاءة الخافتة، فإنك بصعوبةٍ تستطيع أن تتبين ملامح الوجوه المظلمة، لكن ذلك الرجل الغريب، كان لا يزال في مكانه، يجلس على طاولة منزوية، وبين يديه محبرة، وأوراق بيضاء يدون عليها شيئًا ما، هكذا تركته عند الصباح، لقد أثار في نفسي الكثير من الفضول، ما هو يا ترى ذلك الشيء الذي يجعل شخصًا أسيرًا له طول الوقت، إنه رجل في حدود الأربعين، يرتدي الكثير من الملابس، وكلها سوداء اللون، ويعتمر قبعة غريبة، لحيته مهملة، لكنها ليست بذلك السوء.

طلبت صبي المقهى بيدي، ثم سألته عن الرجل، ولكنه اكتفى بالقول: هذا الرجل هنا منذ مدة، ولا يفعل شيئًا سوى الكتابة.

سألته: هل طلبَ شيئًا؟

قال: نعم، عندما دخل إلى المقهى أول مرة، طلب قهوة بدون سكر، ولم يشربها.

طلبت من الصبي أن يذهب، أردت أن أفكر في طريقة ما لأستكشف بها هذا الرجل الغريب، لا لشيء، سوى محاولة مني لإشباع هذا الفضول الجامح، من تراه يكون، هل هو صحفي؟ عمَّ يكتب إن كان صحفيًّا؟ هل يعدُّ تقريرًا عن القهاوي؟ هه هو حتى لا ينظر حوله، كيف له أن يضع التفاصيل وهو لا يراها، يكتب فقط، وكأن الكلمات تتنزل عليه من السماء كلمة كلمة، صحتُ بالصبي من جديد، أعطيته جنيهين وقلت:

– اسمع، اذهب وكأنك تريد تقديم القهوة لزبون ما، وانظر ماذا يكتب.

أخذ الصبي المال، ثم راح يدور حول الرجل، والرجل منهمك في كتابته، لكنه نبيه رغم ذلك، فقد توقَّف عن الكتابة عندما أحس بأنه مراقب.

عاد الصبي وقال:

- نظرت إلى الورقة ولم أفهم شيئًا.
- لماذا؟ هل يكتب بلغة غريبة؟
- لا، لكني لا أجيد القراءة.

تركني الصبي غارقًا في حيرتي تلك وذهب لشأنه، والرجل ما يزال مُنكبًّا على الورق، يدون بسرعة، وكأن فهدًا جامحًا يلاحقه، لا يدع له فرصة للراحة، وفي لحظة ما سيلتهمه، ويقطعه إلى أشلاء صغيرة، في بعض الأحيان أرى حبات العرق اللامعة تنساب بسلاسة عبر جبهته، تشق طريقها عبر العينين، فوق الأنف، ثم تندس ببراعة داخل الشارب، لكأن شاربه قطعة أسفنج.

هل يكون مُخبِرًا يا ترى؟ هذه الأيام من السنة يكثر فيها المخبرون، يوقعون بالمجرمين وبائعي المخدرات، وأحيانًا بائعات الخمور البلدية، أوه لا بد أنه قد رأى جريمة عظيمة، تلك التي جعلت منه آلة كاتبة، من الواضح أن هذا الرجل يبحث عن ترقية تخرجه من مستنقع الفقر، أو ربما يكون روائيًّا مغمورًا؟ من يدري، ربما عثر أخيرًا على قصة عظيمة، ستجعل منه نجم الشباك الأول، سيتحلق حوله المعجبون، وستتعب أضواء الكاميرات عينيه الصغيرتين، وسيحلق شاربه ولحيته بالتأكيد.

بعد ساعات من الترقب، قررتُ أن أواجه ذلك الرجل، وأن أعرف ما يدور، لن أدعه حتى أزيل تلك الحيرة التي أدخلني فيها، وأوقف دوامة التفكير التي اجتاحت رأسي، لا بد وأن أعرف، قمت من مكاني

ثم سرت نحو الرجل في بطئ شديد، كنت كلما اقتربت منه خطوة، قلت سرعته في الكتابة، وكأنه بدأ يحس بما يحدث، وعندما وقفت خلفه على بعد خطوتين، كان قد توقف عن الكتابة تمامًا، ثم رأيت القلم في يده يرتجف بوتيرة متزايدة، بدأ الرجل يتصبَّب عرقًا بغزارة، ثم، وفي لحظة، نهض بسرعة من مقعده، جمع أوراقه ثم جرى نحو الخارج مسرعًا، صرختُ فيه:

- لا ضغينة بيننا يا رجل، فقط، فقط أردت أن أعرف من أنت وماذا تكتب، لا ضغينة، لكنه كان قد هرب بعيدا، أسقط بعض الأوراق، لكني عندما قلبتها وجدتها فارغة، انتظرت ذلك الرجل لأيام طويلة، لشهور، لكنه لم يعد، وأنا ما زلت محتارًا، ويأكلني الفضول، ماذا كان يكتب الرجل الغريب في المقهى؟

الأوغاد يأتون من العدم

دلني حارس الأمن في مبنى الجريدة، على مكتب الناقد المشرف على الصفحات الثقافية، دخلت عليه فوجدته مُنكبًّا على ورق كثير، يقرأ باهتمام ويطلق همهمات خفيضة، وبعد تدقيق بسيط اتضح أنه يقرأ قصتي القصيرة التي أرسلتها إليه قبل أيام، نظر إليَّ من تحت النظارة الطبية وقال بنصف ابتسامة:

- أنت كاتب قصة الأوغاد يأتون من العدم؟

قلت:

- نعم أنا كاتب القصة، أتمنى أن تجيزها للنشر في صحيفتكم العامرة.

من جديد أطلق همهمة، وكانت مسموعة، وظل ساكنًا لدقيقة ينظر نحو الورق، ثم نهض من مقعدة وصب كأسًا من الشاي ووضعه أمامي، ولكني لم أخطط لشربه، فبقيت طول الجلسة أراقبه وهو يلفظ دخانه شيئًا فشيئًا، حتى برد تمامًا.

قال الناقد: أنا أعمل ناقدًا منذ الثمانينيات.

أجبته مقاطعًا:

- هذا وقت طويل جدًّا، أنا بدأت الكتابة منذ عامين ونصف.

واصل حديثه كأنه لم يسمع شيئًا:

- خلال تلك الفترة الطويلة قرأت مئات الأعمال الأدبية، أعمال أدبية عظيمة لم تقرأها حتمًا، ولن تكتب مثلها على الإطلاق.

قلت: سأحاول، ما زلت في بداية طريقي يا سيدي الناقد، هذه أعمال عظيمة لكن الزمن يصنع لنا الكثير من الفرص الجيدة.

قال مواصلًا:

- معظم هؤلاء الكتاب الكبار جلسوا هنا أمامي وسمعوا كلامي، أنا أستطيع أن أتنبأ بالأفضل دائمًا، لأني أدرس النصوص جيدًا، أغوص في أعماقها محاولًا كشف الجميل والقبيح.

ثم وقف على قدميه واضعًا راحتيه على المنضدة وصاح:

- يا سيد، ما علاقة ما تكتبه بالأدب؟ ثم بعثر الأوراق بيده قائلًا:

- هذه لا يمكن أن تكون قصة قصيرة، أوغاد يظهرون من العدم، هه ما هذا الاسم التافه؟

كان ذلك التحول المفاجئ مفزعًا، فقلت غاضبًا:

– هذه القصة فازت بجائزة معروفة، لم يكن يجب أن تمر عليك، كونها أعجبت لجنة التحكيم فهذا كافٍ جدًّا لتجيزها للنشر.

قال:

– يا سيد، العنوان هو أهم مشكل للنص الداخلي، كيف تكتب عنوانًا لا صلة له بالنص؟ كنت أقرأ النص في انتظار أن أعرف إلى ماذا يشير عنوانه، لكن أتدري، إنه لا يشير لشيء، وهذا أمر تافه.

أجبته وأنا أهمُّ بالوقوف:

– أنت لم تقرأ النص جيدًا، لم تقرأ ما بين السطور.

قال وكأنه يرد على كلام آخر غير الذي قلته:

– لديك خلل بائن في ترتيب المكونات الأساسية للبنية السردية، أنت تحاول عبثًا أن تعيد تشكيل أنواع السرد، لكن دون منهجية محددة تكشف ذلك الخيط الرفيع بين التجديد والتهريج.

قلت بيأس: ولكن...

قال دون أن يسمع ما أقول:

– ما تقول لي لكن، حاول أن تعود للمرجعيات الحديثة التي كتبها كبار النقاد، حاول أن تفهم لماذا رفضتُ نصَّك رغم أنه فائز

بجائزة شبابية تافهة، أنا الآن لا أنصحك بتخطي حراك جيلك في الساحة، حاول أن تفعل كما يفعلون، أكتب كما يكتبون، لكن لا تحاول التذاكِي.

قلت في محاولة أخيرة للدفاع عن نفسي الحقيرة:

- إمممم..

قال بغضب: شنو إمممم، أنت ما بتفهم، لا أستطيع أن أسمح بنشر هذا الهراء في الجريدة، تفضل بالخروج من مكتبي الآن.

خرجت من عنده غاضبًا، لم أكن أرى أمامي جيدًا، تخطيتُ الأبواب إلى الشارع وقد بدت أمامي مثل السراب البعيد، وعندما أيقنتُ أني أقف قبالة شارع المواصلات، كان الوقت قد تأخر، والشمس تمارس طقسها اليومي في الغروب، تحسست جيبي فوجدته منتفخا بالمال، كنت قد استلمت قيمة الجائزة الأدبية قبل يومين، وقررت أن أُبقيها في جيبي لوقت الحاجة، لكني أحسستُ أنه الوقت المناسب للاحتفال، كان علي أن أخرج بنفسي من تلك الحالة السيئة التي أدخلني فيها ذلك الناقد الوغد، اشتريت لنفسي ساندويتشات من بائع عجوز عند ناصية الشارع، وزجاجة شعير خال من الكحول، وعندما صعدت إلى الحافلة شربته ثم ادعيتُ الثمالة، وتذكرت أني رجل فائز بجوائز، يعرفني الكثير من الناس، من هذا الناقد الذي لا أعرف عنه غير اسمه، سمعته عندما قدمت قصتي للنشر، أخرجتُ هاتفي ثم كتبت على الفيس بوك: (هل

تعرفون الناقد فلان؟) ولم أنتظر كثيرًا حتى علق أحد الأصدقاء قائلًا: (ومن يكون الناقد فلان هذا؟)

ضحكت بصوت عال وأغلقت الهاتف، ثم أكلت الساندويتشات ونمتُ.

قصة تافهة

رمى الرجل شِباكه في النهر، وللوهلة الأولى ستظن أنه صياد ماهر، لكن الأمر ليس كذلك، إنه رجل تافه، عاطل عن العمل منذ ست سنوات، ولولا أن القصة لا تكتمل بدونه لما ذكرناه.

بالقرب منه يجلس رجل نبيل، يحمل صنارة بلا طعم، وقد تظن أنه جاء للصيد أيضًا، لكنه كان يقرأ، يقرأ كتابًا قديمًا، وهو لا يعرف القراءة، إنه نبيل فقط لأني قلت عنه نبيلًا، ليس أكثر.

المهم أن الرجلين لا يريدان الصيد في ذاته ولا القراءة، كلاهما ينتظر حورية البحر أن تخرج لتستلقي على الشاطئ، ويقومان بعد ذلك باصطيادها، والزواج بها إن كانت تصلح لذلك، وإلا باعاها بثمن غالٍ للمتحف.

ليس بعيدًا من الرجلين لا يوجد شيء، فقط كومة كبيرة من الأوساخ، وسيارة خضار معطلة لا أحد يعرف كيف أتت إلى هنا، بداخلها الكثير من الخضار المتعفن، إنها سيارة تافهة لم يكن هناك داعٍ لذكرها.

قال الصياد صاحب الشبكة:

– أنت، هل تنتظر الحورية أيضًا؟

-حسنًا، لم أكن على علم بأنك تنتظر الحورية.

– أرجوك لا تحاول، إنها لي بلا شك.

يبدو أن الرجلين تافهان بالفعل، فلا يوجد رجل عاقل ينتظر حورية البحر، لأنه لا وجود لحورية البحر من الأساس، لذلك عليّ أن أكف عن كتابة هذه القصة التافهة، وأن أبحث عن شيء آخر أفعله، مثل أن أوقد شمعة في جوف الظلام، ثم أخمدها، لأنه ليس لديَّ أمل في إصلاح العالم، وربما يكون من الأفضل أن أشتري بندقية بماسورتين، وألقيها في البحر، لأني لست إرهابيًّا، أو أن آكل الكثير من السكريات، ثم أقع مُغمًى عليَّ، إن لم يُغمَ عليَّ فسأتظاهر بذلك، لكن الأسهل من ذلك كله، أن أنتحر غير مأسوفٍ عليَّ.

هكذا صرخ المجنون

كان الأستاذ سعيد مدرس اللغة العربية يفكر كثيرًا في حالة الخجل والنسيان التي تعتريه كلما سأله أحدٌ سؤالًا، وليس بالضرورة أن يكون السؤال صعبًا ليضطرب الأستاذ سعيد، المهم فقط أن يكون كلامًا مصحوبًا باستفهام، أو استفسار، كأن تسأله موظفة سمينة عن اسمه لتدونه على ورقة موضوعة أمامها بإهمال، فيبدأ الأستاذ سعيد بالارتجاف والتفكير، كيف يمكن أن يجيب سؤالًا كهذا، وكيف سيكون منظره أمام الناس إن كانت إجابته خاطئة.

يستطيع الأستاذ سعيد مدرس اللغة العربية أن يقف أمام ألوف الطلاب ليلقي عليهم خطبة طويلة عن اللغة العربية، لكنه يبدو مرتجفًا ومهزوزًا بينما يقوم بالإجابة عن سؤال طفل صغير لم يتجاوز العاشرة.

ذات يوم قال له موظف التأمين: بطريقتك هذه أخشى أنك لن تستطيع الإجابة عندما تسألك الملائكة داخل قبرك: من ربك؟ ثم ضحك.

لكن الأستاذ سعيد مدرس اللغة العربية فكر في الأمر بجدية.

(ماذا إذا لم أجب على السؤال حقًّا؟)

(ماذا لو أن الملائكة لم يكن لديهم الوقت الكافي لانتظار الإجابة؟)

(أحيانًا أفقدُ الجواب رغم أنه قريب إلى الذاكرة، لكنه الخوف والخجل).

وهكذا ظل يداوم التفكير باحثًا عن حلٍّ للمشكلة، فالبشر ربما يكونون أكثر تفهُّمًا في الدنيا، بطبيعة حالهم المجاملة، لكن ربما تكون للملائكة مشاغل أخرى ولا يريدون تضبيع الوقت مع رجل خجول وجبان مثله، سأل الكثير من الناس عن حل جيد لمشكلته، لكنهم كانوا يكتفون بالضحك، لكنه آخر الأمر قرَّر أن يُعوِّد نفسه من الآن الأجوبة، فالموت ربما يكون قريبًا، من يعلم؟

لثلاثة أسابيع ظَلَّ الأستاذ سعيد مدرس اللغة العربية يردد الأجوبة بعد أن حفظها جيدًا، من ربك؟ ما دينك؟ ماذا تقول في الرجل الذي بُعث فيكم؟

يفعل ذلك كل صباح بينما هو في طريقة إلى المدرسة، ثم .. وبدون سابق إنذار، وقع ذات يوم ميتًا وهو يتمتم، مات دون أن تظهر عليه أعراض الموت، شخص في حاله يموت فجأة، كما يفعل كثير من الناس.

وكما يفعل بقية الناس، فإنهم قاموا بتكفينه جيدًا ولفِّه بإحكام، كأنهم يخشون هروبه، دفنوه في الثالثة صباحًا في مقابر قريبة، ثم ذهبوا لحال سبيلهم.

في الصباح كان المجنون، الذي يسكن المقابر منذ سنوات طويلة، يجري ويدق الأبواب، وقد زاد جنونه عن حده، وقف أمام الناس وصرخ:

- أقسم أن قبر الأستاذ سعيد كان يهتز دون بقية القبور، كان الأستاذ يحاول الخروج ويصرخ: لقد نسيتُ الإجابة، أخرجوني من هنا!!!!.

كان بعض الناس يتساءلون:

- هل هذا صحيح؟

فيجيبهم البعض الآخر:

- هكذا صرخ المجنون.

دعمٌ لوجستي

بحثتُ كثيرًا، وسألتُ حكيم قريتنا العجوز، ولكنه لم يكن يعرف جوابًا لسؤالي، وكنت بكل ما أوتيتُ من حيرة، أجلس على الأرض مع الرجال أمام الدكان كل يوم، تحت ضوء المصباح الخافت، لأستمع إلى الراديو بشغف متتبعًا أخبار الحرب، وكان المذيع كعادته يستنفر حيرتي، وهذه المرة نطقها ثلاث مرات متتالية: "دعم لوجستي" والتفتُ إلي جدي وأنا أعرف تمامًا أنه يجهل الإجابة.

– ما معنى دعم لوجستي يا جدي؟!

ولكنه اكتفى بهز رأسه المُبْيَض، وظل يقلب خرزات مسبحته التي لا تفتر عن الدوران، مثل ساقية يقودها ثور بائس.

قال أحد الرجال: "الحرب قريبة، ولا نرى عساكر الحكومة هنا، من سيحمينا؟". ثم تعالت الأصوات، وبدأ الرجال يلقون ما في جوفهم من كلام، كل يحاول تحليل ما يحدث، وبدا صوتهم جميعًا مثل الراديو تمامًا عندما ينتهي الإرسال، لن تفهم شيئًا.

قال آخر: "كلها يوم أو يومان، ويقتحم المتمردون أراضينا".

وهذا الرجل الأخير، استقر حديثه في رأسي، وتذكرت كل ما قال عندما استيقظت صباح اليوم التالي، وأنا أسمع صوت الانفجارات، والناس يجرون ناحية الجبال للاختباء، حملتني أمي وجرت بي مسافة طويلة، قبل أن ننحشر في جوف الجبل، وبعد يومين من الاختباء خرجنا قاصدين معسكر اللجوء، كان عبارة عن مجموعة من الخيام المتراصة على امتداد الصحراء، بدت مثل بيوت النمل.

وذات يوم، بينما نحن غارقون في اللعب، أنا وأطفال آخرون عرفتهم في المخيم؛ هبطت طائرة عملاقة عند طرف المعسكر، وسمعت أحد العمال يصيح: "وصل الدعم اللوجستي. وصل الدعم اللوجستي".

لم يكن يخطر ببالي أن تكون الطائرة هي الدعم اللوجستي، ماذا كان سيضر مذيع الراديو لو قال الطائرة بدلًا عن الدعم اللوجستي؟ الناس يموتون والمذيع يتفلسف.

ثلاثة ملحدين

ذَات يَوم في طريق سَفري، التقى ثلاثة مُلحدين، لم يكن أحد منهم يعرف الآخر، لذلك عِندما جاء وقت الصلاة، خاف كُل واحد مِنهم أن يتهِمه الآخران بالإلحاد فيقع ضحية تعصُّبهما، فقاموا إلى الصلاة جميعهم، وتَقدمهم أحسنهم صوْتًا، صلى بهم صلاة مُودع، حتى أن الآخرين بكيا من شدة الخُشوع، وعندما احتدم الليل، أخذ كل واحِد منهم قارورة العَرقِي واختبأ بعيدا ليشرب، ثم عندما تنفس الصُبح تفرق الثلاثة كل إلى مكانه الذي كان يقصده من البداية. بعد شهُور، التقى الثلاثة مجددًا، لكِن هذه المرة التقَوا في السجنِ، ثم بدا كل واحد منهم يسرد قِصته، ولأنهم أحسوا بأن ليس لَديهم ما يخسروه هذِه المرة، بدؤوا بالاعتراف، وكان كُل واحد منهم يُعَرِف نفسه أنه رجل ملحد، لا يؤمن بالخالق، يَشرب الخمر ويدخن البانجو، وقد صادف أن قبض عليه العساكر في هذا اليوم. خارِج الزَّنزانة كان يقف عسكري قصير القامة، يخْشى الظلام قليلًا لكنه يقف في ثبات، ويُحاول جاهدًا أن يلتقط شيئًا مما يقوله الثلاثة...

"هل تذكر يوم أن صلينا .. هاهاها".

"لقد بكيت في خشوع .. هاها".

كان العَسكري كلما سمع سب الدين يقبض على بندقيته ويقول غاضبًا:

- أستغفرُ الله، أستغفرُ الله.

رِدَّة

-حامد السني، أنت متهم بالردة، ما قولك.

وعم الصمت المكان للحظات، وبدا أن الحاضرين من التجار وشيوخ القرى المجاورة ووجهاء القوم المجتمعين داخل دكان العمدة أبو جندل، قد أُصيبوا بالخرس التام.

ورغم أن دكان العمدة الذي هو بمثابة المحكمة ودار القضاء، يتوسط السوق الكبيرة، إلا أن ذلك لم يمنع ربات البيوت من التجمهر حول الدكان، ومحاولة تثبيت أم حامد التي حفر الدمع مجراه على خديها.

أعاد العمدة أبو جندل ما قال من جديد:

– ما قولك يا حامد السني؟

- فعلًا، أنا ارتددت عن الدين، أقر بذلك.

صاح جلال التاجر غاضبًا:

- يا ولد، ما هذا الكلام، ارجع إلى ربك واترك هذا الكلام، أنت ما زلت يافعًا، وأمامك عمر طويل، لا تخسر حياتك بهذه السهولة.

ونال كلام جلال التاجر استحسان الجالسين، وأطلقوا همهمات بسيطة يؤيدون بها كلامه.

- اسمع يا ولد، بصفتي عمدة القرية، وأكبر عمداء قرى المنطقة سنًّا وعلما بالدين، فأنا أمنحك ثلاثة أيام للتوبة، بعدها نرجمك حتى الموت.

وما إن سمعت أم حامد السني من أمام الدكان كلمة الموت، حتى خرت على الأرض مغشيًّا عليها، بينما بدأت باقي النسوة بحث التراب على رؤوسهن.

ظلت أم حامد ترابط أمام الدكان لثلاثة أيام، وتمدُّ الطعام والماء لابنها المرتد من تحت الباب، ولكنها لم تكن تنطق بشيء غير:

- هداك الله يا ولدي.

في اليوم الثالث اجتمع القوم داخل الدكان من جديد، وقبل أن يبدؤوا حديثهم قال حامد السني بصوت ثابت:

- أنا تُبت إلى ربي، وأعلن أني عدتُ إلى الدين، وتركتُ كل ما كنت أقول سابقًا.

كبَّر العمدة وجلال التاجر وكل من كان داخل الدكان، وهذه المرة أيضًا خرت أم حامد مغشيًّا عليها من الفرح.

قال العمدة أبو جندل:

- أهلًا بك أخًا في الدين يا ولد، لقد قطعت قلوبنا عليك.

قال حامد السني مُفاجئًا الحضور الذين علت الدهشة وجوههم السمينة: بما أنس عدتُ إلى الدين، أطلب أن تزوجوني سلمى بنت العمدة أبو جندل.

ثم وجه كلامه إلى جلال التاجر لما له من تأثير معروف على العمدة:

- أنا الآن أخوكم في الدين، ومن حقي أن أتزوج.

هنا احمرَّ وجه العمدة وصاح:

- أنا أزوج بنتي لمرتدٍّ؟ يا ملعون.

قال جلال التاجر معاتبًا:

- لكنه تاب يا جناب العمدة.

قال العمدة: والله لو دخل الجنة أمامي لا أزوجه، إنه مرتدٌّ يا جلال.

- لقد رجع أمامك للدين.

بعد ستة أسابيع زُفت سلمى بنت العمدة لحامد السني، الذي لازمه لقب المرتد منذ ذلك الوقت، حتى أمه كانت تناديه بالمرتد، وكلما سُئلت عنه كانت تقول: ابني كان كافرًا، وما زال كافرًا، لم أره قط يصلي، وعندما أسأله يجيبني بأنه مؤمن وسيصلي ذات يوم، إنه لا يعبأ لأمر الدين، أحيانًا يطلق زوجته في المجلس الواحد خمس مرات أو ستًّا، هذا الولد منافق.

أما العمدة أبو جندل فقد وُجد غريقًا ذات يوم، علم الجميع أنه قد انتحر، فقد وجدوا في درج دكانه رسالة يلعن فيها نفسه.

عزاء

مَا لم تكُن تعلمه الحاجة حليمة، أنها قَد نزلت مبكرًا من الحافلة التِي أرهقها طول السفر من الخرطوم إلى الريف، لَكنها عندما رأت بيوت القرية الصحراوية بعيدة ومتناثرة، تأكدت أنها قَد نزلت بعيدًا جدًّا.

لكِن ذلك لم يمنعها من النحيب الصُّوري الذي تدربت عليه طويلًا خلال سنوات الخِبرة التي قضتها داخل بيوت العزاء، تَبكي و(تسابل) النساء وكأنها صاحبة الوجع الأولْ.

مَرَّ على مَوت حاج سعد أكثر من أسبوع، لذلك بَدت الدور من البعيد هادئة جدًّا، وقد بدا أنّ ساكنيها قد بدؤوا اعتياد الغِياب القاهر لحاج سعد، إلا أن العادات والتقاليد التي تَوارثها الناس هنا كابرًا عن كابر، تُحتم على المعزين أن يكونوا على ذات القدر مِن الحزن الذي تملَّك أهل الميت أول الأمْر، وأن تنزرف دموعهم كشلال مُستعجل، لذلك لجأت حاجة حَليمة إلى الصراخ العالِ واستجداء الدموع، ظلت تُردد لدقائق اسم حاج سعيد لعل ذلك يلهمها بعض الحزن، نزلت على خدها عِدة دمعات، سعدت الحاجة حليمة لذلك، لكن سُرعان ما

بددت رياح الريف الحَارة تلك السعادة، وهبَّت آخذة معها الدمعات والحزن المصطنع.

في آخر الأمر سكتَت وأدركت أنها ما تزال بعيدة، من هذا المكان لن يَسمعها أحد، لكنها في ذات الوقت تخشى أن يقِل خُشوعها وهي تعزي جارتها القديمة في القرية، سيكون عارًا كبيرًا إذا حكت جارتها القديمة لصاحِباتها وقريباتها كيف أن حاجة حليمة قد عزتها ببرود، وستقول الكَثير من الأشياء التي لم تحدث، كأن تقول أن حليمة كانت شامتة في موت حاج سعَد لأسباب تختلقها في وقتها، عندما تذكرت حاجة حليمة كُل ذلك عادت مجددًا تتصنع البكاء والعويل، وجلست على الأرض وسكبت الكثير من التراب على رأسها، لكن لا أحدَ يراها، هذه كانت الحقيقة التي ظلت تتحاشاها طوال الطريق.

عنْدما وصلت إلى ظهور بُيوت القرية، كان صوتها قد بُح، وزاغت عَيناها فلم تعد ترى جيدًا، تملكها التعب تمامًا، فعَادت مجددًا للبكاء، وهذه المرة كانت أكثر صدقًا مِن الأول، فقد كانت هذه المرة ترثي لحالها وسوء تقديرها لمسافة النزول، تَذكرت صاحب الحافلة فسبت أهله جميعا، وتذكرت الشَابة التي ونستها في الحافلة والتي نبهتها مبكرًا بموعد النزول، فسبت أهلها أيضًا. عنْدما فتحت الجارة القديمة بَاب البيت ورأت الحاجة حليمة أمامها في حال بائس، لم تزد عن قولها: سجمي. كَانت الحاجة حليمة راكعة، كأنها تؤدي طقوس الولاء للباب،

ووجهُها شاحب وقد بدأت ملامحها تبهت شيئًا فشيئًا، وينزل من أنفها ماء عكِر حاولت مسحه بطرف ثوبها، لكنها زادت الطين بلة، وعندما رأت جارتها القَديمة قالت بصوت مَبحوحٍ: لحقتيني زوجك. ثم سقطت مغشيًّا عليها.

مذكرات خروف

مذكرات خروف عاشق.

تنبيه.

تم العثور على هذه المذكرات محشورة داخل جلد الخروف، محاطة بالشحم، ومذيلة بتوقيع الخروف المحب العاشق.

كان ذلك بعد انقضاء عيد أضحى قبل عدة سنوات مضت، وقد عثر على هذه المذكرات أحد المهندسين في مصنع معالجة الجلود، وبعد تفكير عميق وتريُّث، قرَّر المهندس نشر المذكرات عبر الإنترنت.

مذكرة رقم (١)

هذا يومي الأول في هذا المكان، خلف حائط قصير داخل حوش القصر، أمامي حزمة من البرسيم وجردل به القليل من الماء، المكان موحش وأنا لم أعتده بعد، ولن أعتاده، فهو لا شيء إن قارنته بالمكان الذي كنت أعيش فيه قبل يومين.

كنت أعيش داخل مزرعة كبيرة، وسط غابة من البرسيم والحشائش، برفقة إخوتي وأصدقائي الخرفان الآخرين، كنا سعداء إلى أن جاء يوم

وأخذونا جميعًا على ظهور الشاحنات، تفرقنا داخل المدن والمنازل الموحشة، ولأقتل الرتابة هنا في انتظار ما سيحدث لاحقًا قررت أن أُدوِّن مذكراتي، ربما تستغربون كيف لخروف مثلي لم يتجاوز سن الثانية أن يكتب ويقرأ ويتحدث لغة البشر والحيوانات في آن واحد، لكننا فصيلة نادرة من الخرفان، نعيش لعشرات السنين أكثر من باقي الخراف، نتعلم اللغات بمجرد سماعها، نتقنها أكثر من متحدثيها، ثم نكتبها على الأرض والجدران، لن تصدقوا إن قلت لكم إني أتحدث لغة أجنبية أيضًا؟ ليس صحيحًا، لا داعي للكذب، فالرعاة لا يتحدثون بالأجنبية.

أشعر بالنعاس الآن، سأكمل غدًا..

مذكرة رقم (٢)

إنه اليوم الثاني، رتيبًا مملًّا يمضي بسلحفائية، أكاد أموت من الضجر، إلى أن سمعت خشخشة نعلين تخطو نحوي في غير انتظام، ثم سمعت صوتًا يأتي من بعيد:

- أنوتا، نظفي فضلات الخروف.

كانت أنوتا فتاة جميلة إلى حدٍّ يفوق الوصف، ترتدي فستانًا بحمالات، ضيق وقصير، يا للهول! إنها مدهشة لدرجة أشعرتني بالعار، كدت أن أدخل من فرط الخجل بين أظلفي، هذه الفتاة الجميلة سوف تنحني لتنظف تلك القذارة التي صنعتها، أنا الآن أشعر بالعار، لكن

أمرًا آخر شدني بقوة، ما إن انحنت أنوتا، التي بدأت تحرك المكنسة على الأرض يمينًا ويسارًا، حتى بدأتُ أُلاحقها بوابل من النظرات، ساعتها حمدتُ الله كثيرًا أني خروف، ولن يلحظ أحد أن نظراتي لم تكن بريئة، سيعتقدون أنها محض نظرات بلهاء لخروف لا يجيد الثغاء.

مذكرة رقم (٣)

إنه اليوم الثالث ولم أعرف بعد سبب قدومي إلى هذا المكان، لكني وجدت شيئًا أخذ كل عقلي هنا، إنها أنوتا الجميلة، لذلك أكثرت في الأكل ليلة البارحة، وصنعت الكثير من البعر في انتظار أنوتا لتنظفه، لكن الصدمة الكبرى، كانت عندما جاءت أم أنوتا بدلًا عنها لتنظف الأوساخ، لم أكن لأصدق أن هذه المرأة هي أم الفتاة الجميلة لولا الشبه الظاهر، المهم أني اجتهدتُ كثيرًا لأتجنبها، وانزويت بعيدًا خلف الحائط، وهذه المرة لم أشعر بالعار، بل تمنيت أن أمرق وجهها الكريه في القذارة.

مذكرة رقم (٤)

اليوم السابع، ولم أكتب شيئًا خلال الأيام الأربعة الماضية، فقدتُ قدرتي على الكتابة، والنوم، لقد عشقتُ أنوتا تمامًا، هي ملاكي المخلص، حبيبتي التي لم تعد تأتي، منذ أن نظفت المكان قبل أيام لم تعقب مرة أخرى، رأيتها مرة واحدة لكنها سكنت عقلي وقلبي، أين أنت يا أنوتا؟ أنا في شوق إليك.

البارحة عند الصباح رأيت أهل البيت يتحدثون عن العيد، قالوا إنه بعد غد صباحًا سيصلون صلاة العيد، ثم يقومون بتجهيز الخروف، كانوا يقومون بشحذ السكاكين، جلبوا رجلًا يحمل في يده عدة حجرية، يمرر عليها الشفرات فتزداد حدة، لم أفهم في البدء لم كل هذا، لكنهم كانوا كلما سنُّوا سكينًا نظروا نحوي، ثم بدأت نتفٌ من أفكار تدور في رأسي، وأحسستُ بأني المقصود، وفي الليل، عندما تذكرت أحاديث الرعاة في المزرعة، عن أننا نطعم الناس، ويصنعون من لحومنا مأكولات شهية، أصابني الرعب، كنت أظننا طباخين مهرة، نصنع الطعام، لكن يبدو أننا نحن الطعام، حاولت لأول مرة منذ أن ولجت إلى هذا المكان، أن أتخلص من هذه السلاسل التي تقيد رجلي المسكينة، لكني لم أفلح، ولم تَرَ عيني نومًا.

مذكرة رقم (٥)

هذا يومي الأخير في هذا المكان، وقد خرج الناس لتوهم للصلاة، أنوتا كذلك خرجت معهم، مرت من أمامي دون أن تلتفت إليَّ، المهم أنها بخير، لقد ظننتُ أن مكروهًا أصابها فاختفت عني، جيد أنها بخير.

أنا اليوم، وبعد لحظات قليلة، أستعد للعبور الى عالم آخر، سأموت وتنقضي سنواتي في هذا العالم، لكني سأكون ذكرى حسنة في ذاكرة الكون، أنا لم أوذِ أحدًا منذ أن وعيت الدنيا من حولي، لم أقتل أحدًا،

وأنا الآن أموت من أجل الناس، لذلك سآكل الطعام، وأشرب الماء، فأنا الآن شخص مرتاح الضمير. وداعًا.

تنبيه آخر.

بعد أيام طويلة، طويلة جدًّا، اتصلت بنت بالمهندس، قالت إن اسمها أنوتا، وأخبرته أن قصة الخروف حقيقية، وأنه لم يكن يكذب أو يهذي، لكن الأمر لم يكن بهذا العمق، ولم تعطِ الموضوع اهتمامًا. تنحنح المهندس قليلًا، وقال لها:

- قبل أن أغلق الخط، دعيني أسألك سؤالًا واحدًا" هل أكلت من لحم الخروف؟ أعني عاشقك.

قالت:

- أوووه أرجوك لا تذكرني.

ثم أخذت تبكي بحرقة مواصلة الكلام:

- لقد أكلته كله، أكلت كما لم آكل لحمًا من قبل، أكلت بشراهة، ثم تبكي وتواصل:

- كانت تلك المرة الأولى التي آكل فيها الشطة الخضراء المطبوخة، لقد كان خروفًا شهيًّا.

تيت تيت تيت

حيرة

منذ اليوم الذي سقط فيه مصطفى على وجهه، من على رأس مئذنة المسجد عندما كان يستعد للنداء لصلاة العصر، وهو في حال أخرى غير التي اعتادها منذ زمن طويل، فقد كان الحادث مروعًا ومخيفًا، في ذلك اليوم أيقنت أم مصطفى الخرفة أن ابنها سيموت، لقد نزف من وجهه كثيرًا، الطبيب اكتفى فقط بوقف النزف وخياطة الجرح، وبعد شهر عندما أزال مصطفى الشريط الطبي عن وجهه أُصيب بصدمة كبيرة، صدمة أفقدته صوابه وجعلته يهذي، لقد اتخذ الجرح شكل الصليب، كان صليبًا مرسومًا بدقة، وقد ظلَّ لأيام طويلة يخبر أمه الخرفة أن ما حدث كان من ترتيبات القدر لا أكثر، لكنها لم تكن تزيد على أن تقول:

- كنت تؤذن للصلاة، والآن تكفر بالله؟

لم يعد مصطفى يؤذن للصلاة بعد ذلك، بل ظل يصلي في الصفوف الأخيرة ليداري علامة الصليب الظاهرة على وجهه، لكن لا شيء يختبئ عن أعين الناس، أو مسامعهم، وانتشرت الشائعات في البلد كما تنتشر النار في القصب الجاف، لقد كفر مصطفى، إنه سخط الله، لا بد وإنه شيطان أو ملعون، ثم شيئًا فشيئًا لم يعد أحد يرغب في التعامل مع مصطفى، يصلي في الصف وحيدًا حتى وإن كان في الصف الأول،

يمشي في الطريق فلا يمشي معه أحد، ويسمع همسات النسوة تتناوش مسامعه:

- الكافر ابن أم مصطفى، ولد ملعون.

ثم بدأ مصطفى يتعمد تفويت الصلاة في المسجد، وما لبث حتى هجر المسجد نهائيًّا، لم يعد يحتمل، لكن الأمر لم يكن جيدًا، فما إن ترك الصلاة في المسجد حتى خرجت إشاعة جديدة تقول إن مصطفى صار ملحدًا، كفر بالله جملة وتفصيلًا، وقد سمعت أمه إحدى النسوة ذات مرة تقول: لو أنه ظل نصرانيًّا لكنا وجدنا له حجة أمام الله، لكن أن يصير ملحدًا، هذا ما لا نستطيع تبريره.

وكانت أمه الخرفة عندما تراه يصلي العشاء في غرفته مختبئًا خلف الظلام تقول: أما عجائب، كافر وتصلي صلاة المسلمين، والله هذه فلتة من فلتات الزمن. ظَلَّ مصطفى مُلازِمًا غرفته شهرًا، كان يفكر في حَلٍّ لما آل إليه حاله، لكنه يبدأ بالبكاء عندما يتذكر أن ما يملكه من مال، لا يكفي لإجراء عملية جراحية، وأيضا لا يملك الجرأة ليقطع لحم رأسه ويزيل عاره.

بعد يومين طرق الباب جماعة من رجال البلد، يتقدمهم شيخ المسجد الوقور، مطبوع على جبهته علامة الصلاة، والقس بنجامين الذي انتقل إلى البلد لتوه، وعلى صدره صليب ضخم، وقبل أن يسألوا، أجابتهم أم مصطفى:

- مصطفى الكافر هناك يبكي، في غرفته، إن كان معكم مصابيح يكون أفضل لأن المكان مظلم، في تلك اللحظة كان كل الرجال قد أخرجوا من جيوبهم مصابيح رخيصة، ولم تكن تعمل، سوى تلك التي كانت بحوزة الشيخ والقس.

أضاء الشيخ بمصباحه جبهة مصطفى وقال:

- أستغفر الله، هذا غضب من الله.

ثم تحسس جبهته ونظر نحو القس:

- انظر إلى جبهتي لترى علامة الصلاة.

أجابه رجل قصير ممتلئ البطن يقف قرب الباب:

- هذا من فضل الله عليك يا مولانا.

رفع القس مصباحه نحو وجه مصطفى وقال متجاهلًا الشيخ:

- يا مصطفى، أنت لم تكن مسلمًا يومًا، إن الرب اصطفاك الآن لتكون مسيحيًّا صالحًا.

رفع مصطفى رأسه في استغراب:

- من أنت؟

أجابه القس:

- أنا القس بنجامين، جاركم الجديد، ما رأيك أن تأتي غدًا إلى الكنيسة؟

قال مصطفى وقد اشتد استغرابه:

- لا بد أني لبثت في غرفتي أيامًا كثيرة.

هنا تدخل الشيخ قائلًا:

- سعيد كافر أصلًا، وأنت تريد أن تزيده كُفرًا؟

ثم ارتفعت الأصوات داخل الغرفة، وبدأ كل الرجال يتحدثون في آن واحد، فانتفض مصطفى واقفًا وقال بصوت بائس مخيف وغليظ: - ماذا تريدون، لقد تركت لكم المسجد والبلد؟ لحقتم بي إلى هنا، اخرجوا جميعًا، حالًا.

بعد سنوات من الاختباء داخل غرفته، خرج مصطفى ذات ليل ولم يعد، كان الوقت خريفًا والنيل قد بلغ أوجه، وفاض كما لم يفعل من قبل، خرج أهل البلد بحثًا عن مصطفى يحملون المظلات والمصابيح، بمن فيهم والدته الخرفة والقس والشيخ، وعندما وصلوا عند طرف النهر وقد أنهكهم البحث، قال القس مستدركًا:

- هل قرأ مصطفى موسم الهجرة إلى الشمال؟

قالت أحد أصدقاء مصطفى المثقفين:

- قرأها خمس مرات.

قال القس:

- **إذًا عودوا الى بيوتكم، لن تجدوا جثته اللعينة.**

موتتنا الأولى

فِي هذا العام أُغلق مصنع السلاح، وقصّ الرئيسُ الجديد، الشريط، عن أول مصنع لإعادة تأهيل الأسْلحة، بحيث يتم تحويرها إلى مَواد أخرى مفيدة، كألعاب للأطفال، وأثاث للمنازِل، وأشياء لا حصر لها.

وأصبح العالم مكانًا مُضيئًا يغشى نُوره كل الآفاق، وصار الناس سواسية كأسنان المُشط، تخيل معي أنّك تمشي في الأرض فلا تخشى سِوى انقطاع الشبكة عن جوالك، ونسيان موعد مهم مع حَبيبة.

كل ذلك كان يحدث، العالم يَزداد مثالية يومًا بعد يوم، توقّفت الحروب وإلى الأبد، وأصبح الصغار فِي أدغال افريقيا يواظبون في الذهاب إلى المَدرسة، يقابلون بَعض الأسود في الطريق فيطعمونها شيئًا من قشر البطيخ.. فمنذ زمن أحْجَمت السباع عن أكل اللحوم، بالأحرى، العالم كله كفَّ عن الدموية، إنه عالم لطيف، عَالم مثالي.

أنا الآن أعيش أسوأ لَحظات حياتي، أبغض هذا العالم، فحالما أرى صَغيرًا يضع مالًا في صندوق شحاذ، أتمنى لو أقرض أذنيه بأسناني، أتمنى أن أطفئ سيجارتي دَاخل عينه، هذا الوغد الصغير يقتدي بالكبار، وقريبًا لن تكون هناك سلبية، سيتحرر العبيد من قبضة السادة، وسيزيلون كُل إشارات المرور، الناس سيلتزمون بإرشادات نموذجية يحْفظونها كما يحفظون تقاطيع أنوف حبيباتهم.

أرتدي نظارتي السوداء حَتى في ظلام الليل، أغطي رأسي بقطعة قماش سميكة، ثم أخرج متجولًا في الشوارع، مراقبًا نفسي وهي تذوب وسَط حشد من الناس المثاليين. يصيب أحدهم كَتفي فيبادر معتذرًا، أشتمه فيقول: «شكرًا»، أضربه على وجهه فيدير خده الآخر ويقول: «اِضرب»، لكني أكتفي بالشتم وأنا أحس الدم يَغلي في عروقي.

أقف أمام باب المصنع القديم فتراودني الذكريات، الدّمع ينحدر شيئًا فشيئًا، يجعل على خديّ مجرى ماء مالح، أتذوقه بلساني فأستحسنه، يتكرر ذلك كُل يوم، ولكني اللحظة اتخذتُ قرارًا مهمًّا، ولن أنظر إلى العواقب مَهما يكن، فأنا أكره المثالية المفرطة، العالم يكاد يشتعل مِن فرط الهدوء، حتى أن أذنيَّ فقدتا شيئًا من قدرتيهما بسبب السكون المطبق. وبعض الأغبياء زادوا الأمر سوءًا واخترعوا كاتمًا لعوادم السيارات.

مصنع (موتتنا الأولى) للسلاح، بشعار بارز: اقتلهم أينما كانوا.

قال الحارس وهو يراني أمسح دمعة أخرى نزلت على عُجالة: "هل عليّ أن أعيد لك كلامي؟"

قلت: لعلها ستكون المرة الأخيرة.

قال: "يا سَيد، المصنع مغلق، وأنت لم تعد تعمل هنا، ابحث لك عن عمل آخر".

ليس للأمر علاقة بالعمل، ولكني أدمنت رائحة البارود، صَدى الرصاص الذي يقع في أذني كضربة على العُود، ودوي السلاح الذي هو مثل أغنية لذيذة، تخرج متمايلة من فَم مغنية على مسرح كبير.. هذا ليس جنونًا، أنا إنسان طبيعي.

وعلى حين غفلة من الحارس دخلت المصنع، وهَالني المنظر، وكأن المكان لم يكن يضج بالحياة ذات يوم، في هذا الركن كنا نضع الصناديق الفارغة إلى حين ملئها بالذخيرة، هُناك نضع السلاح الخفيف، وهنا في هذه القاعة الكبيرة نستقبل مئات الزبائن... ثم وكأن شيئًا لم يكن، سكن العَنكبوت أركان الحائط، في هذا الزمن الوجيز صنعت اليعاسيب بيوتها الطينية بالقُرب من صورة مالك المصنع المعلقة في السقف، كان يظن نفسه إلهًا، بنى مصنع السلاح وسط البيوت، ثم صار يحيي ويميت، كيفما يُريد، والآن أمسى أحد أولئك المثاليين الأغبياء.

فجأة شعرتُ بيد غريبة تتحسس كتفي، ثم صوت رجل عجوز يقول: "مكانك أيها المثالي".

رفعتُ يدي عاليًا: "أنا لست مثاليًّا".

قال: "وماذا تفعل هنا؟"

قلت: "جئت لأسرق السلاح".

أنزل يده عن كتفي، توجهت نحوه بِحركة بطيئة، ونظرت إليه، كان عجوزًا لدرجة أنني سأتمكن منه حتى وإن امتطى دبابة، ضحكت وقلت: "ألست مثاليًّا؟"

قال: "لا، ولا أخفيك سرًّا، مثلكَ أتيت أسرق السلاح".

فتحنا الكثير مِن الصناديق، أزلنا الغبار عن الأسلحة ثم تخيرنا من بينها أقوها وأكفأها، ثم قررنا أن نخرج إلى العالم لنعيد إليه اتزانه، كان الرجل العجوز أكثر حَماسة، خرج يجري الى الشارع وهو يطلق النار يمينًا ويسارًا، أصاب الحارس في كرشه وأرداه قتيلًا، قَتل المئات من أولئك المثاليين، العجيب أنهم كانوا يموتون مبتسمين، ما إن تستقر الرصَاصة في رأس أحدهم، حتى تبدو نواجذه للعيان، حَتى الموت يموتونه بنموذجية، هؤلاء لا يستحقون الموت أيضًا.

حضَر رجال الأمن، رأوا حارس الباب صريعًا فاستشاطوا غضبًا، اختفت مثاليتهم أدراج الريح، وصاروا بدورهم يطلقون النار في غَضب، يمينًا ويسارًا، وما هي إلا ساعة حتى أرغت المدينة وأزبدت، هاجت ومَاجت، جاءها أمر الموت فانطلقت الرصاصات تحصُد الأجساد.

من بعيد وقفت أتأمل ذَلك بسعادة، لقد عاد التوازن، إن لم يكن للعالم فلمدينتنا عَلى الأقل. لقد انطفأ نور المِصباح الكوني، وعمَّ الظلام الأرجاء، ارتفعت أبواق السّيارات وعوادمها، وبات السائقون المهرة يلعنون مبتدئي الطريق مِن أصحاب الرُّخص الطازجة، وجاءني الرجل

الذي كنت قد ضربته ليصفعني آخذًا بحقه... أخيرًا، الحمد لله، العالم صَار كما يتمناه أصحاب العقول.

مدرب التنمية البشرية

الأستاذ مدرب التنمية البشرية، رجل قصير القامة، ممتلئ البطن قليلًا، انحسر شعره الناعم عن مقدمة رأسه وصار مثل أرض بوار، له شاربان غليظان هما مصدر فخره، وفمه واسع مبتسم دائمًا، هو باب رزقه الذي لا يخذله ولا يغلق أبدًا.

مهمة الأستاذ مدرب التنمية البشرية في هذا العالم هو أن يسخر من الموت، وأن يُتفِّه الفكرة في أذهان الناس، وعندما يقف أمام الجمهور المنبهر بقوة صوته، فانه يستحضر كل الجُمل التي تدرب عليها ليلة البارحة، يتنحنح كثيرًا قبل أن يلقي نكاته التي تمجد الحياة، يحدث الناس عن الحياة الجميلة التي يجب أن يعيشوها، بعيدًا عن الموت وفكرته المخيفة.

قبل أن يبدأ الأستاذ مزاولة مهنته العظيمة هذه، كما قال ذات يوم، كان مزارعًا بسيطًا، ثم أصبح مدرسًا في مدرسه قروية بسيطة، يشبه مهنته في التدريس بالفلاحة دائمًا، قال إن زراعة البذور في الأرض تشبه

تلقين الطلاب الدروس، غير أن البذور تنمو ذات يوم وتثمر، أما هؤلاء الأطفال الأغبياء فلا يثمرون أبدًا.

الأستاذ يحب القهوة بشدة، يظن أنها خُلقت من ضلع معوج لخروف مشوي، ويقول: لا تسألوني ما الرابط، أنا أراها كذلك.

يضع فنجان القهوة أمام عينيه، يتأمله كثيرًا قبل أن يرتشفه في بضع رشفات طويلات، ثم يقف أمام مرآته، صديقته التي تعكس ما يراه الجمهور، يحاول أن يرمم بعضًا من صلعته، يأخذ قليلًا من شعر الجانبين ويلصقه في منتصف رأسه تمامًا.

ذات يوم، وبينما كان الأستاذ مدرب التنمية البشرية عائدًا من محاضرة سخر فيها من الموت، وشرب فيها الكثير من القهوة الحبشية المركزة، أحس ببعض الدوار والألم في بطنه، ترنَّح كثيرًا عند عبوره الشارع الممتد على جانبيه إلى ما لا نهاية، ثم سقط على الأسفلت أمام السيارات.

عندما رآه سائق العربة الصغيرة، والذي باغته الجسد الملقى على الأرض، عرف فيه شخص الأستاذ الذي طالما دربَّه كثيرًا، وعلَّمه أساليب ناجعة للسخرية من الموت، شعر بالصدمة ثم انحدر عن الطريق واصطدم بسياج قديم لا لزمة له.

أما سائق الشاحنة العملاقة والمتهور، الذي خرج لتوه من خمارة ما في مكان بعيد، كان يسخر من الموت بطريقته الخاصة، وعندما رأى

الجسد الراقد أمامه لم يُلقِ له بالًا، وما إن سمع أضلع الأستاذ مدرب التنمية البشرية وهي تتهشم وتطقطق تحت عجلات الشاحنة، قال: من المجنون الذي يموت أمام شاحنة بلا فرامل؟!

أساطير

عبد الكريم فلاح فقير، مات ذات يوم دون سبب، وجدوه متكوِّمًا على نفسه وقد فارقته الروح، لم يترك خلفه وصية ولا ولدًا، حتى أنه با ع داره الصغيرة قبل أيام من موته.

في يوم الجنازة قال رجل من بين المشيعين:

- لقد مات عبد الكريم بعد أن لدغته أفعى في طول مئة متر.
وتساءل رجل آخر:

- من أين تأتي أفعى بطول مئة متر؟ ولماذا لم نجد أثرا للدغة؟

وفي حين بدا أن الرجل الأول قد ألقم حجرًا، فإنَّ فقيه القرية صاح فيهم:

- مات عبد الكريم لأنه لم يكن يصلي، أرسل الله إليه أفعى في طول ألف متر وليس مئة كما قيل افتراءات، أيها الشباب عليكم بالصلاة فهي تقيكم غضب السماء.

ثم سرى ذلك الأمر في كل القرية، وكل يزيد كما يريد، قالت الجدة ذات يوم لصغيرها الذي رفض أن ينام مبكرًا:

- روح عبد الكريم تطوف كل ليلة حتى منتصف الليل، تأكل الصغار ناشفي الرأس، ثم تأوي بعد ذلك إلى هناك، وأشارت بيدها نحو كهف في جبل بعيد.

بعد سنوات لم يكن أحد يجرؤ على الذهاب إلى الجبل، وكان الذين يتملكهم الموت يستغربون من أولئك الذي يرفضون تصديق قصة عبد الكريم، كيف لهم ألا يخافوا، لذلك قاموا بتأليف جديد، فجأة أصبح لعبد الكريم أبناء من فراغ، وكلهم شهدوا موت والدهم بلدغة ثعبان، إلا أن القصص تضاربت في بعض الأحيان.

مضى زمن طويل والناس يتناقلون تلك القصص الغريبة، فإذا أرادت الأم أن تسكت الصبي، تحدثه عن عبد الكريم آكل الأطفال، وإن أراد رجل أن يبيع ثماره قال إن روح عبد الكريم تباركَ من يشتري ثماري، وإذا أراد شيخ القرية أن يفرض حظرًا للتجول قال إن جنود عبد الكريم يطوفون بالمكان ليلًا، وبعضهم كان يتواصل مع عبد الكريم، وأكدوا أنه حي يُرزق، إلا أنه ما زال يختبئ هناك، في الكهف.

ذات يوم، دون سابق إنذار، عاد عبد الكريم فعلًا إلى الحياة، بدا ضخمًا للغاية وقويًّا جدًّا، وجاء يجر خلفه جيشًا جرارًا من الهياكل العظمية، جمع كل أهل القرية في مكان واحد، وقال: يا كذابون يا دجالون، أنا مت لأن يومي قد تم، توقف قلبي عن النبض ومت، فقط يا أغبياء.

ثم حفر لهم أخدودًا كبيرًا وكبَّهم فيه، وأشعل النار.

خمر باردة

شرب صديقي خمرًا باردة، اشتراها من بائعة خمر عجوز تخطت المئة عام، وفي الحقيقة هو تجرَّعها أمامها وقال: أنصحك يا جدتي أن تنتحري، مئة عام! ما هذا الهُراء.

وتوقَّع أن يقرأ صباح الغد خبرًا في جريدة (الدار) يقول إن عجوزًا قد انتحرت، متأثرة بعمرها النزق الذي رفض أن ينتهي، ولكنه في الصباح عندما طالَعَ الجريدة لم يجد الخبر، وعِوضًا عنه وجد صورة كبيرة لفتاة ليل ميتة وهي ترفع أصبعها الوسطى في وجه العالم.

مشى مترنحًا طول النهار بلا هدى، وعند مدخل الكوبري قابلته نملة صغيرة، كانت تعزف على الجيتار بطريقة جميلة، داعبت ألحانها طبلة أذنه فرقص، وعرض بعصاة اقتلعها من رجل كان يمر بالمكان، وعندما انتهت النملة من العزف قال لها: عزفك جميل، وأنت جميلة، سوداء وقصيرة.

قالت: أنا أيضًا فوتوغرافية.

وأخرجت كاميرا كانون من خلف ظهرا وقالت: ابتسم.

عندما حاول أن يعود الى البيت، ضل الطريق، ولم يعرف إلى أين سيذهب، ساعتها قالت له بنت جميلة واقفة عند ناصية الشارع، وكانت ترتدي فستانًا: هل أنت ضائع؟

قال: وسكران أيضًا. ثم ضحك هاهاهاهاها.

قالت: سكران؟ جميل، أنا لم أرَ سكران في حياتي، تعالَ أعرفك إلى والدي سيعجبه أن يرى سكران.

قابله والد الفتاة الجميلة وصافحه بسرور وقال: أنا لم أرَ سكرانَ في حياتي، تمنيت ذات يوم أن أشرب خمرًا وأدخل السجن.

قال صديقي: ألم تدخل السجن بعد؟

أجاب الرجل: حدثني عنه والدي، فهو مرتاد سجون نوعًا ما، دخله لخمسة مرات، في إحداها بعد أن قتل أمي وقطعها إلى شرائح صغيرة، ثم أكلها، هل أنت أعزب؟ ما رأيك أن تتزوج ابنتي هذه؟

عندما حلكَ الليل فكر طلال أن يعود الى البيت، فأشارت الفتاة الى رجل شرطة يقف بعيدًا وقالت: اذهب إليه سيرشدك إلى الطريق، لكن الشرطي عندما شم رائحة التمر المعتق تنبعث من فم صديقي، مسكه من تلابيبه وأخذه إلى السجن.

بات ليلته تلك في السجن يناجي الصراصير الصغيرة التي تسكن خلف الباب، اكتشف أن بينهم أطباء ومهندسين يعملون تحت الأرض

في ورديات منتظمة، وقد سرتهم رؤيته لذلك قدموا له طبقًا شهيًّا من فضلات الطعام العفنة.

وفي الصباح خرج صديقي بكفالة مالية قدرها ثلاثة جنيهات، رفض العسكري أن يأخذها عندما علم أن في بيت صديقي شجرة ليمون، ولا نعلم ما علاقة الليمون بالأمر ولكنه خرج أخيرًا.

عند الباب استغل صديقي نوم الحارس ليسرق الدبابة العملاقة الواقفة أمامه، ودمر بها قسم البوليس الذي بدا كعلبة كبريت صغيرة، حتى الصراصير صاحبة الوردية ماتت وهي تدعو عليه بالهلاك، بدبابته تلك قتل كل من كان بالقرب من القسم، دمر البيوت والدكاكين والطبليات الصغيرة، وتمنى لو أنه يستطيع أن يدمر كل العالم، ثم انتحر.

قراصنة

صباح أحد الأيام توقفت سفينة القراصنة التي تحمل اسم اللؤلؤة في عرض البحر، لأول مرة منذ سنوات طويلة، لقد كان ذلك لأمر جلل ومحزن، فقد مات القبطان، الملقب بكبير القراصنة ذي العين الواحدة، وحسب أعراف وتقاليد القرصنة في جزر الكاريبي، فإن القبطان الجديد الذي سيتولى منصب كبير قراصنة السفينة، يجب أن يكون من خارج سفينة القرصان، أي إنه لا أحد من قراصنة اللؤلؤة سيتولى ذلك المنصب الحساس.

خلال أيام قليلة كان الإعلان منشورًا على الصحف المحلية والعالمية، بخط عريض، مطلوب قرصان لقيادة السفينة الشهيرة، اللؤلؤة، على أن يكون ذا كفاءة عالية، وأن يكون خريجًا بتقدير مقبول فقط، وأن يكون كفؤًا لكل المهام التي ستوكل إليه.

أثار الموضوع كثيرًا من الضجة داخل مواقع التواصل الاجتماعي، لدى المهتمين بشؤون القرصنة في البلاد، أما مناهضو القرصنة فقد قالوا كلمتهم: ما هذا الهراء؟ ألن نتخلص من القرصنة ذات يوم؟

وقد دعا أحدهم بعد أن شارك الإعلان على حائطه إلى إضراب عام وعصيان مدني، حتى تقوم الحكومة بإيقاف القرصنة، لكنه تعرض للاعتقال صبيحة اليوم التالي بتهمة ازدراء القرصنة، إذ إننا نعيش في بلد حر يحترم كل اللصوص وقطاع الطرق.

تقدم الآلاف لامتحان الالتحاق بقيادة السفينة، وكان عليهم أن يمروا بالكثير من المعاينات المملة والطويلة حتى يثبتوا جدارتهم، وكان العدد يتناقص مع كل امتحان، حتى تبقى ثلاثة رجال كانوا خيرة المتقدمين لاعتلاء المنصب، بعد أن رشحهم ضباط كبار في مجلس قيادة القرصنة، وكان عليهم الآن المثول أمام لجنة الاختيار المتعسفة والتي يخشونها كما يخشون الأشباح، لتختار منهم رجلًا واحًدا لهذا المنصب الحساس.

بعد رحلة طويل عن طريق مركب صغير، وصل المختارون الثلاثة أخيرًا إلى السفينة وسط ترحيب حار من الموظفين والعمال هناك.

جلس المتقدم الأول أمام لجنة الاخيار المتعسفة وهو يفرقع أصابعه في خوف شديد.

سأله عضو اللجنة الأول:

- هل سمعت عن غزوة الكناري؟

- أهاا، أنا أعرف هذه الحركات جيدًا، تريدني أن أذكر لك أسماء الشهداء، صحيح؟

- لالا، هذا سؤال قديم وممل، أنا أريدك أن تذكر لي أسماء ذويهم الرباعية، بشداتها وضماتها.

لكن الرجل فضل الخروج من السفينة وإلقاء نفسه في البحر على أن يجيب على هذا السؤال، لقد كانت جثته بائسة وهي تطفو فوق الماء المالح.

أما المتقدم الثاني فقد كان أخف قلقًا من المتقدم الأول، كان يعلم منذ البداية أن لجنة الاخيار ستكون تعسفية أكثر مما يجب، لذلك بحث كثيرًا في الإنترنت، وجمع أكثر الأسئلة تعسفًا على مر التاريخ، وحفظ أجوبتها.

لكنه لم يكن يتوقع سؤالًا مثل هذا:

- أيها القرصان، هل تظنني سمينًا؟

– عفوًا! ما علاقة هذا السؤال بالأسئلة التعسفية؟ أنا أريد سؤالًا تعسفيًا، لقد جهزت لكم الكثير من الأجوبة، عندما تسألونني عن اسم أنثى الحمار سأجيب: أي أنثى تقصد بالتحديد، وستضحكون، وعندما تسألون عن عدد أسنان الفأر في بيتنا سأقول لكم: عرفت فأرًا واحدا في بيتنا ولم تكن له أسنان، وستضحكون أيضًا.

- لا، أنا لا أريد هذه الأسئلة، جاوب بدون مجاملة، هل تظنني سمينًا؟

قال المتقدم وهو يلملم أوراقه ويهم بالخروج: أظنُّ يا سيد أن بطنك مترهل، شكلك غير متناسق، أنت أشبه بدمية بائسة مرمية في المزبلة، وعليها الكثير من براز الكلاب الضالة، ثم خرج، لكنه كان جبانًا ولم يلق بنفسه من فوق السفينة، وعاد بالمركب سالمًا إلى الشط.

المتقدم الأخير لم يكن خائفًا، كان يمشي بثقة جعلت أعضاء لجنة الاختيار يرتعدون خوفًا، وقبل أن ينطق بكلمة، قدم ظرفًا صغيرًا ومعه ورقة موقعة، قال عضو اللجنة للمتقدم: هل أنت متأكد يا ابني أن هذا توقيع السيد الرئيس؟ أوووه سأحتفظ به لنفسي.

قال عضو آخر مُوجِّهًا كلامه للمتقدم: مبارك عليك الوظيفة، يبدو أنك الأجدر بهذا المنصب، تفضل سعادة القبطان لتتولى مهامك.

خرج القبطان الجديد إلى ظهر المركب وهو يصرخ فرحًا، وقرر أن يقوم برحلة سريعة حول جزر الكناري، ابتهاجًا بالوظيفة الجديدة، وستكون سانحة طيبة يستكشف فيها المكان، وبعد الإبحار مسافة مئة متر فقط، بدأت السفينة تفقد توازنها وتتمايل في عرض البحر، ثم ارتطمت بصخرة جليدية صغيرة كانت قد تكوَّنت للتو، ثم غرقت السفينة، ولم ينجُ أحدٌ.

زيارة خاطفة

في ذلك اليوم عند الظهيرة، بدا أن كل شيء يمر عاديًا ورتيبًا، ولا يعكر صفوه غير عودة الأطفال من المدرسة بملابسهم المتسخة وغير المكوية، وموت كلب أجرب عند طرف القرية، إلا أن شيئًا جديدًا قد حدث، وغير تلك الرتابة التي أصابت القرية من زمن طويل، فقد التمعت في الأفق البعيد، وبالتحديد في الطريق الأسفلتي القادم من الخرطوم، صفائح سيارات فاخرة، تتهادى على الطريق.

عندما توقفت السيارات أمام بيوت القرية، وترجلت منها امرأة أجنبية في الثمانين، يحيط بها مجموعة كبيرة من الحاشية والحرس، عرف أهل القرية أن تلك المرأة كانت الملكة إليزابيث، قررت أن تقضي أسبوعها الأخير في السودان بين القرويين البسطاء، والجميلين كما وصفتهم.

ظلت لساعات تتجول بين البيوت والحظائر، تداعب الأطفال والغنم على حد سواء، وتجاذب الكبار أطراف الحديث، والذين كانوا يحدثونها بلغة ركيكة بالكاد تفهمها لولا وجود المترجمين، وبدا ذلك رائعًا إلا أن حَدَثَ طارئٌ جللٌ، صاحت الملكة اليزابيث: لقد سرق أحدهم تاجي الملكي الذي لا يقدر بثمن، وسادت القرية موجة من الهلع

الصامت، وهم يرون الملكة تولول وتصيح: أبلغوا البوليس، أين البوليس؟ الإنتربول؟

أحاطت السلطات كامل القرية بسياج معدني غليظ، حتى لا يهرب اللص الذي لا يعرفون من هو، ولكنهم لم يجدوا شيئًا، وقد بدا المفتش الذي جاء من الخرطوم محتارًا، فكل بيوت القرية خالية إلا من تراب الأرض والعناكب المنتحرة على السقف، ولكنه فضَّل الانتظار فالساعات القادمة ستكشف له الكثير.

وقف المفتش أمام الملكة إليزابيث، وهو رجل قصير القامة، كرشه بارز ومكور، وله أذنان مثل أذني الأرنب، قال: ماي برزدنت، كوين، وي كان فيند ذات رويال تاج، ما تقلقي أبدًا، اند عليك الله قو ريست.

في تلك اللحظات أصابت الملكة حالة من الذهول واليأس، ووضعت يدها على رأسها وقالت لمرافقها بلغة إنجليزية سليمة: هذا المغفل لن يعيد التاج، يا إلهي! ثم ذهبت نحو خيمتها.

أحس المفتش بهيبة وهو يسمع كلمات الملكة، نظر نحو جنوده بحركة سريعة وبابتسامة واسعة قائلًا: شكرتني الملكة كما ترون.

لقد حدث ما لم يتوقَّعه جميع المراقبين الذين يرابطون خارج الأسوار الحديدية، لكنه كان أمرًا غاية في الغرابة، فعندما خرج صديق صاحب الجزارة قاصدًا الخرطوم، وقال عند بوابة التفتيش: إنها ستكون

رحلة تفقدية لأوضاع أهله في الخرطوم، عاد بعد أيام يقود بوكس دبل كابين، سأله المفتش: من أين لك هذا؟

- اشتريتها.

- ومن أين لك بالمال؟

- اشتريته. أقصد، المال مالي وأنا حر فيه، دا شقا السنين.

حينها التمعت عينا المفتش، وأحس أن أمرًا ما يحدث، وقال: ختوا الكلب دا في السجن.

وفي ذات اليوم الذي اقتيد فيه صديق صاحب الجزارة إلى السجن، خرج محجوب صاحب البقالة قاصدًا الخرطوم أيضًا، وبعد يومين عاد وقد ملأ جنبات حماره بأجهزة الكترونية باهظة الثمن.

أوقفه المفتش، ثم دار حول الحمار بسرعة متفحصًا محتوياته، وقال: من أين لك هذا؟

أجابه محجوب من فوق حماره متعجبًا: دا شنو المن أين لي!

قال: جبت الحاجات دي من وين.

قال محجوب: أنا ما حرامي يا أفندي، أنا تاجر وكان عندي قريشات في البنك صرفتهن، ودعتك الله.

قال المفتش وهو يحاول أن يبرم شاربه، وقد بدا أنه اكتشف أن لا شارب له للتو: حا نشوف الكلام دا بعدين.

ثم برم المفتش شاربه الوهمي للمرة الثانية والتمعت عيناه. وقال: أعدموه إن أمكن، أو ضعوه برفقة الجزار.

وتوالت المفاجآت، مريم صاحبة الحضانة، أرسلت في طلب الأسطى من الخرطوم، ليرمم لها غرفة المسجد، وجعلها مكانًا يصلح أن يكون حضانة بمواصفات عالمية، وسيف الدين الشاب الذي بالكاد تجاوز التاسعة عشرة، نبت له شاربان فجأة، وقرر أن يتزوج، وكما أخبر، سيقيم عرسًا تسري بذكره الركبان، أما العروس فسيسير خلفها يوم العرس أكثر من عشرين إشبينة مدفوعات الأجر.

احتار المفتش كثيرًا، كان عندما يسأل كل أولئك الناس من أين لكم هذا، يجيبون الله كريم، سأل نفسه كثيرًا، الله كريم فعلًا ولكنه منطقي، سيعطيكم مالًا على المدى البعيد، لكن أن تصيروا مليونيرات من العدم، فهذا ليس كرمًا ربانيًّا، إنها سرقة أيها الأوغاد.

مضى الكثير من الوقت، والأيام تتوالى والمفتشون يعجزون عن إيجاد التاج الملكي، وكل من يحققون معه لا يخرجون منه إلا بباطل، بينما واصل أهل القرية رحلة الترف التي ابتدؤوها غير عابئين بالسلطات التي تحيط بهم، وفي تلك الأثناء، كانت الملكة إليزابيث قد رتبت حقائبها، وعادت إلى بلادها، وقررت ألا تزور السودان مطلقًا.

سؤال نكير

أحنى الرجل ظهره قليلًا ومَدَّ يديه إلى الأمام، ثم بدأ الطفل بسكب الماء رويدًا رويدًا، أخذ الرجل الصابونة من الأرض وصنع الكثير من الرغوة على يديه ثم قال:

أنت ولد منو يا جنى.

وكأن السؤال لم يكن لأحد، وتبدد صوت الرجل في الفراغ العريض، ولم يأتِ جواب، بينما طغى على السكون صوت الماء وهو يصطدم بالأرض، مرت ثوانٍ قليلة قبل أن يعيد الرجل السؤال بنبرة أقوى: أنت ولد منو يا زول.

مجددًا كان صوت الماء هو الأكثر وضوحًا، وقد صنع تحت يدي الرجل بركة صغيرة، عليها الكثير من رغوة الصابون.

مجددًا: ود منو انت، ما سمعتني؟

-ولد أبوي.

– أبوك منو.

- أبوي أبوي.

سحب الرجل يديه في ذهول، ثم وقف منتصبًا وأخرج من جيبه منديلًا أزرق، مسح يديه ثم وجهه وقال: والله حاجة عجيبة، ما عاوز اعرفك زاتو ولد منو، اها.

ثم ذهب ناحية الخيمة غاضبًا.

ظل الولد واقفًا يحمل الإبريق في يمينه، وقطعة الصابون الصغيرة مرمية على الأرض، وبعد لحظات قليلة، انحنى رجل آخر، رجل طاعن في السن، كان قد أكمل لتوه مص بقايا الفاصولياء العالقة بين أصابعه التعبة، حمل الصابونة وقبل كل شيء بادر الطفل قائلًا: أنت يا ولد هيل منو في الناس؟

مسجدهم

ذات يوم، وبينما كنت مارًّا بأحد الأحياء الراقية، سمعتُ أذان العشاء، وكان هناك مسجد قريب، فقررت أن أصلي العشاء هنا ثم أكمل طريقي.

كان المسجد فاخرًا إلى الحد الذي يحثُّك على الإقامة فيه، يجعلك تفكر في ذلك الجحر الذي تسكن فيه، وتتفل عدة تفلات على شمالك وتستعيذ بالله من سوء المسكن.

كان المسجد خاليًا نوعًا ما، والصف الأول خالٍ تمامًا، وكأن لا أحد يرغب بالصلاة فيه، فوقفت فيه ناويًا تحية المسجد ركعتين، وما إن شرعت في التكبير حتى شدَّني شيخ وقور وجهه مضيء من قميصي وقال: يا بني، في هذا الصف يصلي السيد الرئيس، وحرسه والمقربون، ارجع صلِّ ورا.

كان الأمر محيرًا، ماذا بين الرئيس والله ليحجز له صفًّا كاملًا؟ هل هناك صلة قرابة أو توصية من ملاك عظيم؟

رجعت راضيًا إلى الصف الثاني، ثم وقفت وقفة الصلاة الصحيحة التي علَّمني إياها شيخ سلفي عابر ذات يوم، ثم شرعت في التكبير ناويًا تحية المسجد، فأشار إليَّ الشيخ الوقور وقال:

-قلنا ليك ارجع ورا.

=الرئيس بصلي هنا برضوا؟

-لا، هنا بصلي رئيس الوزراء، وحرسه والمقربون. ارجع ورا، ولمن أقول ليك ورا، قصدي ترجع كم صف.

فعدتُ إلى الصف السابع، وكنت منزعجًا جدًّا وغاضبًا من مداخلات الرجل، وعزمت هذه المرة ألا ألتفت إليه أبدًا، لكن قبل أن أبدأ التكبير، وقف بقربي شيخ آخر، وقور أيضًا، وقال:

-ارجع ورا لو سمحت، هنا يصلي الوالي، وحرسه.
– ومقربوه برضو مش؟

-لأ، الوالي حقنا ما عنده مقربين.

هذه المرة الوضع لا يطاق، لو كان هؤلاء المسؤولون يأتون إلى المسجد بأنفسهم ويحجزون أماكنهم لكان أفضل، لماذا يمنعون الصفوف على الناس، حتى المبكرين لا يجدون أماكن للصلاة، هل يخدعون الله مثلًا؟ أم أنهم بعد أن كوشوا على الدنيا يريدون تكويش الآخرة.

فعدتُ إلى الصف الأخير، ربما رقم ثلاثين أو أربعين، لست أدري، فالمسجد كبير جدًّا، ولاحظت شيخًا وقورًا آخر يجلس منزويًا دون أن يتحدث، لكنه ظلّ يرمقني بنظرات قاسية.

فقلت أُخطابه:

-أها كل المسؤولين كملوا، كلهم حجزوا الصفوف الأولى، هنا والله ما فضل إلا تقولوا الجن يصلوا هنا.

عدل الرجل من جلسته وقال مستغربا من كلامي: فعلًا، الجن يصلون هنا، هناك على اليمين يصلي السيد جنو خرشبيش وزير وزارة الجن بمجلس الوزراء، وبقربه طوالي الباش مهندس عميد ركن كبشبو قائد قوات الجن السريع، وهنا جهة الشمال بصلي واحد قريب كبشبو ما بعرف اسموا.

صمت قليلًا وقال:

-بتعرف الجن الأحمر ؟

– قلت مرتعبا، أي بعرفوا.

-بس بصلي هنا، محل أنت واقف.

فانسحبت سريعًا وهربت من هذا المسجد المسكون بالجن ورجال السياسة، ولم أصلِ تلك العشاء حتى الآن، لأنه (طار لي في راسي.)

حكاية أكثر غاسلي الصحون
احترامًا في السنوات الأخيرة

"أنا لا أصرخ، الضرب بالسياط يحفز العبيد وحدهم على الصراخ، وأنا لست عبدًا لأحد ."

قال ذلك ثم مضى في عمله يغسل الصحون دون أن يراوده فتور أو تعب.

ألقى صاحب المطعم العجوز عشرة صحون أخرى داخل الحوض وقال: اعمل أيها العبد.

قالها مستفزًّا، وعندما أحس أن الغضب تملَّك غاسل الصحون صاح بصوت عالٍ: أنت مدين لي يا وغد، أمك السمينة مدينة لي، والدك المرحوم يدين لي بخمسة آلاف، ثم هرب إلى العالم الآخر دون أن يفي بدينه، أليس لي الحق أن أكره عائلتك؟

توقف غاسل الصحون قليلًا، وتنهد، نظر إلى صاحب المطعم العجوز بطرف عينه، ثم واصل عمله دون أن يرد. قال صاحب المطعم

العجوز: عمومًا، لم يتبق لك الكثير لتعمله، كلها خمسمئة جنيها ثم أعتقك من هذه العبودية، وذهب يترنح عبر الباب، وساعتها لاحظ غاسل الصحون أن صاحب المطعم العجوز، يميل في مشيته ناحية اليمين أكثر، هو لا يشبه نفسه من الخلف، يبدو نحيلًا وأكثر وشحوبًا، بينما ظلت رقبته تكتنز شيئًا كثيرًا من اللحم.

قال غاسل الصحون في حنق: تبًّا لك، عندما أفرغ من هذا الدين، سأضربك كل يوم على قفاك الممتلئ، وسأتلذذ بذلك الصوت الذي سوف تصدره رقبتك بفعل الضربة.

ومن الخارج، سمع ضحكًا مدويًّا وكلمة بذيئة (...): افعلها إن استطعت.

كانت أول صفعة تلقاها صاحب المطعم العجوز في يوم ماطر، يوم أن أعتق غاسل الصحون من عبوديته، أعطاه أوراقًا كثيرة كانت أمه قد وقَّعتها عن أبيه، أغلق المطعم جيدًا ثم انصرف تحت المطر، وعندما سمع الصفعة على قفاه خر على الأرض مشدوهًا، وظلت رقبته الممتلئة ترتجف لدقيقة، ثم وقف غاسل الصحون عند رأسه قائلًا: أنت لم تَرَ شيئًا بعد، كنت تظنني أهزر أو أهذي، لن أدعك، سأنتقم لنفسي، وغدًا صفعة أقوى، وذهب بعيدًا يتلاشى شيئًا فشيئًا تحت أضواء الإنارة.

وفي كل يوم يحاول فيه صاحب المطعم العجوز النجاة من الصفعة، كان غاسل الصحون يضاعف له العذاب مرتين، ومع صفعة القفا كان يعاجله بركلة على البطن، وعندما استعان صاحب المطعم العجوز برجال الشرطة لحراسته، استطاع أن يرتاح لمدة ثلاثة أيام، ولكنه في اليوم الرابع تلقى أربع صفعات قويات، وأربع ركلات على البطن، وقد كان الأمر محرجًا لعشرة رجال من الشرطة المدربين، يحيطون به كالسوار في المعصم، ذلك دعاهم للشك، كيف لرجل يتوسط عشرة رجال يحرسونه أن يتلقى هذا الكم من الركلات؟ هم لم يروا شيئًا غير أن الرجل وقع على الأرض يتلوى.

لذلك قررت الشرطة أن تسحب رجالها، وأن يُدوَّن بلاغ ضد غاسل الصحون. وعندما عرضت الشرطة غاسل الصحون أمام القاضي، قال القاضي: السيد غاسل الصحون، أنت متهم بصفع السيد صاحب المطعم العجوز وركله، ما قولك؟

قال غاسل الصحون مندهشًا وهو يمسح بضع حبات عرق عن جبهته: كيف؟ أنا لم أصفعه سيدي القاضي، فعلًا أنا توعدته بالصفع، ولكني لم أفعل.

قال القاضي: وكيف تثبت أنك لم تفعل؟

قال غاسل الصحون: يا سيدي القاضي، كيف لي أن أصل إلى رقبته وهي محشورة بين عشرة رجال من الشرطة؟ سيدي هذا الرجل

يهذي فقط، لقد حول حياتي الى جحيم، استعبدني وهدد أمي بالسجن إن لم ندفع المال، ولكني إنسان محترم لا أضرب أحدًا على قفاه.

تداول القاضي الأمر بينه وبين نفسه ثم وجَّه كلامًا للرجل صاحب المطعم: سيدي العزيز، أنت المذنب، ما ذنب غاسل الصحون إن كان ضميرك هو من يضربك على قفاك؟ أنا أستغرب كيف لرجل في مثل سنك ومكانتك يرفض أن يتصالح مع ضميره، صدقني حتى وإن حكمنا على غاسل الصحون بالموت، ستظل تتلقى الصفعات يومًا بيوم، أنصحك أن تزور مستشفى المجانين لأيام.

ثم التفت إلى غاسل الصحون: سيدي أنت لست مذنبًا، أنت أكثر غاسلي الصحون الذين قابلتهم احترامًا، خاصة في السنوات الأخيرة، أنا مندهش حقًّا، كيف لكلماتك أن تثير هذا الرجل وتدفعه نحو الجنون.

رُفعت الجلسة.

قصف

عزيزتي السابقة، لقد مضى على انفصالنا سبعة أعوام، لقد مضت سريعًا، أسرع حتى من الضوء نفسه، لا تقلقي سأقنع أينشتاين بهذا الأمر، فأنا لديَّ الحق أيضًا في تحديد السرعات.

ربما تتساءلين الآن عن مغزى هذه الرسالة المفاجئة بعد كل هذا الجفاء، ربما سألت نفسك وأنت تضعين سبابتك أسفل ذقنك الكريه وتقولين: هل سيحبني من جديد؟ ثم عادت صورتي الجميلة تتراقص أمام عينيك الضيقتين، هل تشعرين بالإثارة الآن؟ يا لك من مثيرة للشفقة!

لكني ما زلتُ أحبك، لا أدري لماذا، طوال هذه السنوات السبع لم أكف عن التفكير فيك، حتى مع حبيباتي الثلاث الأخريات، كنت معهن دائم الشرود، وفي بعض الأحيان كنت أراك في وجوههن الجميلة، لكني لا أكترث لهن، رغم جمالهن البائن، أاااخ كم أفتقدهنَّ وأفتقد لمساتهنَّ الناعمة.

ما رأيك أن نعود كما كنا؟ ربما سأتنازل قليلًا عن الجمال، لأنه فعليًّا ستكون التجاعيد قد ملأت وجهك الشاحب، وأنفك ازداد انحناءً نحو الأسفل، أما شعرك، أرجوك لا تذكريني، لم يكن لديك شعر من الأساس.

لقد فعلت الكثير من الأشياء الجيدة خلال السنوات السبع الماضية، لا أذكرها الآن، لكن اطمئني إنها أشياء جيدة، وأهمها أني كنت أعمل بدوام ليلي. للأسف في مساء البارحة فصلوني عن العمل، هم لا يعرفون قيمتي، لقد كنت موظفًا ذكيًّا ولمَّاحًا، المهم أنا الآن حبيس غرفتي الصغيرة، لا أرغب في الخروج للبحث عن عمل جديد، آثرت الجلوس والاسترخاء لوقت طويل، فأنا لا أحتاج لماهم القليل، ثم داهمتني فكرة لذيذة، وهي أن أرسل لك رسالة، وأخبرك أنه يمكنك العودة إلى أحضاني من جديد، أعدك سأبحث عن عمل وسأتزوجك، طبعًا جدَّتي لن تكون راضية بذلك، لكن أُبشِّرُك أنها ستموت بعد سنوات قليلة فقط وبعدها سنتزوج، في المرة السابقة قلت لك نفس هذه الوعود، لكن لا أحد يعلم بدقة متى تموت الجدات. بيد أن هذا لن يشكل فرقًا، لأني أظنك عانسًا، لطالما كنت كذلك أيتها المنحوسة، لا أحد غيري يرغب فيك.

****

عزيزي القديم، أوه لم تعد عزيزي منذ زمن بعيد. وفي حقيقة الأمر واجهتني صعوبة بالغة في تذكرك، لقد استغرقتُ ثلاث ساعات لأتذكر وجهك البائس، وليتني لم أفعل، لقد تذكرت لحيتك الكثة التي تصيبني بالغثيان، لم أظن أن الله يخلق الشياطين القبيحة لتعيش بين البشر، لكن لا بد أنك قد هربت من حظيرة الشياطين إلى الأرض، ولأني كنت غِرَّة، أحببتُك بلا تفكير، وكرهتك بعد أسبوع فقط، ولم أشأ أن أجرح مشاعرك الشيطانية. حاليًّا أضحك من نفسي لأني بكيتُ عليك عندما رحلت بدل أن أحمد الله، لقد اختفيت تمامًا كما يختفي الملح داخل الماء، ولم تكن ترد مطلقًا على الرسائل.

جرحتني رغم أني تنازلتُ من أجلك عن مشاعري، لأجل إرضاء غرورك، لكنك وغد لعين، خنتني مع صديقة لي قلت إنها تفهم فيزياء أينشتاين أفضل مني. إذن دَعْ أينشتاين اللعين يجد لك حبيبة الآن.

وليكن في معلوميتك يا عزيزي السابق، لم أضع سبابتي أسفل ذقني ولم أتساءل، ولكن من تساءل هو زوجي الجميل، ستجد صورتين داخل الظرف، الأولى له وهو يجلس خلف مكتبه الأنيق، والثانية للحيته الملائكية المهذبة، لقد قرأنا رسالتك ونحن نحتسي الشاي بالبسكويت في مزرعتنا، نحن الآن تجار برتقال وفراولة لنا سمعتنا في السوق، المهم أن بطوننا اِلتوت من شدة الضحك، حتى أن ابني الصغير، الذي يشبه زوجي كثيرًا أصابته الدهشة وكاد ينخرط في البكاء، لولا أني أمرت أخته

الكبيرة، التي تشبه والدها كثيرًا أيضًا، أن تعطيه الكثير من المال، فنحن أغنياء جدًّا.

أوه وأنا حامل في شهري السابع. من خلال حديثك عن نفسك، أستطيع أن أعرف حالك الآن، إنها حال تعسة، لم تتزوج بعد، ليس لك أبناء ولا مال ولا عمل، وأنت الآن سعيد تكتب الرسائل إلى حبيباتك السابقات أيها البائس، تفتقدهن، ليس العيب عليك، العيب على هذا الكون الذي يحتمل ثقل دمك دون أن يفتك بك اعصار أو تبلعك الأرض، بائس. تحياتي، عزيزتك السابقة التي تجاوزتك منذ سنوات.

الاستقالة

ملاحظة في نهاية القصة.

ومنذ أن سقط عزرائيل على مؤخرة رأسه، وكان ذلك قبل خمسة آلاف عام بالتمام، فإنه لم يعد يذكر شيئًا، ولا لصالح من يعمل، إلا إنه ما زال يقبض الأرواح التي يمليها عليه القدر، يحتفظ بها في مكان آمن لا يعلم به أحد سواه، لكن في المئة سنة الأخيرة بدأ يحس بالضجر، إذ إن قبض الأرواح لم تعد مهمه تليق بملك في مثل وسامته. كان كلما نظر إلى المرآة، تذكر قول العجوز التي قالت له قبل أن يقبض روحها النزقة: «كم أنت وسيم يا عزرائيل! إنني عزباء» لذلك قرر أن يستقيل.

كان يحس بالحزن عندما يقبض روحًا لطيفة، يظن أن العالم خسر كثيرًا، وكان يشعر بفرح غامر، عندما يطفئ روحًا شريرة، لكنه ذات يوم، اختلت في رأسه كل الموازين التي كان يظنها، عندما أخبره زعيم دولة ما، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بتعب شديد، بعد أن انزلقت على خده ثلاث دمعات مالحات، واستحضر في ذهنه كل تلك الأرواح التي

انتشلها وكأنه الإله: «داخل شعبنا هذا بذرة قذرة وشريرة، بذرناها فيه قبل وقت طويل، إن أردت أن تخرجها، عليك أولًا أن تتخلص من كل حاكميه، ثم تعلمهم الصواب والخطأ، ولتأمل بعد ذلك أن يتغوط الشعب بذرته القذرة، ويصير شعبًا خيّرًا.

ساعتها تأكد عزرائيل أن فكرة الشر تبقى، لا الأجساد البالية، فهي لا محالة سيأكلها الدود عن آخرها، أما الأفكار والبذور القذرة، فلا يحدّها مكان أو زمان، ولكنها كالرياح العاتية. شعر حينها بالحزن قليلًا، لكنه عندما أعاد تدوير الأمر في رأسه، راوده السرور، فتلك الأرواح اللطيفة التي تشربت الشر، لا شك ستنتصر.

فكرة الاستقالة راودته أول مرة، عندما أراد أن يقبض روح شابٍ جامحٍ، دخل عليه عند الصباح الباكر، كانت الغرفة تضج بالهدوء والشاب يلعب بالورق، دنا منه عزرائيل قليلًا، أراد أن يحدثه، فتلك عادته التي دأب عليها مؤخرًا، سيكلم كل أولئك الذين يهم بقبض أرواحهم، يجد في ذلك حكمة يعلمها في نفسه، وقف عند رأسه وقال: «أريدك ألا تفزع يا صديقي، ولكني أتيت لأقبض روحك المسكينة، التي لم تر شيئًا في هذا الوجود.»

قفز الشاب واقفًا، وقد بدا مرتعدًا ومهتما: «أنت عزرائيل؟»

-"نعم يا صديقي، يؤسفني أنى أخبرتك بذلك".

قال الشاب بحزن: «أنا حضرت من بلدي الفقير قبل أيام، هل رأيت كم البؤس الذي يعيشه قومي في ذلك المكان؟ إنهم بصعوبةٍ يأكلون، وأنا لم أعش لحظاتي الجميلة في هذا البلد الرائع بعد، كم أتمنى ذلك»، ثم قطب حاجبيه وقال: «أنا لن أموت، عشت في بلدي خمسة وعشرين عامًا، لم أصب حتى بنزلة برد، ثم فتح الشباك الذي يطل على حديقة من أشجار البلوط، وقال: «كيف أموت في هذا المكان النظيف؟ خبرني بالله عليك، أنا لن أموت هنا، لن أموت".

عندها قبض عزرائيل روحه، بينما بقي الجسد متشبثًا بالشباك يحاول أن يلقي آخر نظرة إلى العالم الذي لا موت فيه.

قرأ عزرائيل ذات يوم عن الإله ثور صاحب المطرقة العظيمة، ساورته الشكوك في أن يكون هو من كان يعمل لصالحه، ولكنه سيفعل أي شيء مقابل أن يترك هذه المهمة الصعبة، فمعاركة الأرواح ليست بالعمل الهين، أحضر عزرائيل ورقة طويلة وأقلامًا وقرر أن يبدأ في كتابة استقالته التي سيزيّلها بتوقيعه الجديد.

(عزيزي الإله ثور، في الحقيقة بحثت مطولًا عن كلام مناسب لأقوله، لكني لم أجد، لذلك فضَّلت الكلام بعفوية دون أي ترتيبات. أنا لا أعلم إن كنت فعلًا من أرسلني لقبض الأرواح، ولكني أفترض أن من أرسلني هو إله عظيم، أحس بذلك كلما نظرت إلى الشمس أو تحت هالة القمر في ليلة اكتماله، وها هي غرفتي الآن أمامك مبعثرة بالكامل،

وأشيائي كلها مشتتة ومكوّمة بعضها فوق بعض، لا بد أنك تراها الآن، هي تشبه تمامًا الحياة التي عشتها خلال الخمس آلاف سنة الماضية، حياة مبعثرة وأمنيات ضائعة، غرفتي هذه ألا تحتاج من يُنظمها؟ فما بالك بهذا الكون الكبير إذًا؟ ماذا كان ليحدث لو أن الكواكب لم يكن هنالك من يضبط حركتها، بالتأكيد كان الناموس الكبير سيختل، وستتساقط بعض المجرات على بعض سقوطًا نهائيًّا، لكن ارتباطي بهذا العمل يعني أن أصبح عصفورًا محبوسًا داخل قفص.. أنا أريد أن أعيش، لقد فكرت مليًّا في أمر الزواج، لماذا لا أتزوج وأنجب أطفالًا؟ ثم أموت كما يموت الجميع؟

المهم، هذا كل ما أردت قوله، فرجاءً تقبل اعتذاراتي واستقالتي، المخلص دوما، عزرائيل).

ثم رتب غرفته كما ينبغي لها أن تكون، وضع كل شيء في مكانه الصحيح، فتح الشباك على مصراعيه، وتدفق النسيم العليل إلى الغرفة كما يتدفق الماء الزلال، وضوء شمس الصباح الجميل غزا الجدران بأكملها، رأى الطيور تحلق عاليًا، الكون عجيب، شمس تخرج صباحًا لترسل أشعتها الذهبية في الأرجاء، وعند المغيب تتوارى خلف أستار الظلام، يا لهذا النظام الفنان! عزرائيل يريد أن يكون حرًّا، أن يكون جزءًا من هذ الجمال.

كان عليه أن يكتشف معنى آخر للحياة، معنى مخالف لحقيقة وجوده على هذا الكون الذي يبدو فيه كذرة صغيرة، وأن يعيش حياته ليكون شخصًا متمتعًا، تمنى أن يرى النور من جديد، يخرج من جوف الظلام ليضيء العالم، ليستشعر المتعة الحقيقية في كونه موجودًا، كونه يتنفس، ويتحرك، يغزو بعقله حصون الأفكار، لقد خلقه الربُّ لأجل ذلك لا غير، لم يخلقه إلا كي يعيش سعيدًا، وعندما أمره بالعبادة، لم يكن في حاجة لصلاته أو صيامه، إنما كان عزرائيل المحتاج، المحتاج لسعادة تسعها العبادة، صلة الروح، الحياة، الطاقة، والحب، هذا المعنى الذي يحوي لذة الحياة، إذًا عليه أن يكون سعيدًا منذ اليوم.

لم يكن عزرائيل صاحب خلق واسع، لذلك لم يكلف نفسه عناء الشرح للحارس الذي يقف أمام باب برلمان الآلهة، فخطف روحه على عجل واستغفر لذلك كثيرًا، دخل عبر الباب ماشيًا يتأمل المصابيح الخافتة المعلقة على الجدران، والمنقوشات التي تبين دستور آلهة الإغريق، والذي تم رميه قبل زمن طويل، أي منذ أن قرر الإله ثور الانفراد بالحكم.

كان ثور يجلس حول منضدة عملاقة ومستديرة، مصنوعة من الذهب اللامع، وكانت حوله أكواب الفودكا في غير نظام، لقد كان حاله بائسًا، وهو يركز جل نظره على المنضدة، في نقطة صغيرة وبعيدة جدًّا عن العالم الواقعي، وضع عزرائيل استقالته بعنف على المنضدة،

وأحدث ضجة كبيرة وجلبة داخل القاعة، كان صدى الصوت يخلخل أذني عزرائيل، وبدا ذلك كافيًا ليلفت نظر ثور ببطءٍ شديد، ثم أمسك الاستقالة وبدأ يطالعها على مَهَلٍ لا يخلو من ابتسامة ساخرة في أثناء القراءة، ثم قال: "يا عزرائيل، هل تريد أن تموت؟"

رد عزرائيل: "لا، لم آتِ إلى هنا لأموت."

قال ثور: "فلتغرب عن وجهي إذًا."

لم يتمالك عزرائيل نفسه، ضرب المنضدة بكلتا يديه وصاح: "لن أبرح مكاني حتى تعفيني من هذه المهمة".

تحسس ثور مطرقته المتسخة، وكأنه ينظر إليها للمرة الأخيرة، وقال: "يا سيد عزرائيل، أنا لا أستطيع أن أقبل استقالتك."

هنا احمرت عينا عزرائيل، وبدا الغضب واضحًا على وجهه، تابع ثور قوله في تعاسة: "أنا لم أعد أمتلك الصلاحيات، الكون تسيّره الآن قوى أخرى لا أعلم عنها شيئًا، لأن البشر لم يعودوا يؤمنون بي... في السابق كنت آخذ قوتي وقوة مطرقتي من توسلاتهم، وأدعيتهم التي تمجدني، الآن كفروا بي، أنا آسف، اذهب إلى غيري".

لكن وبحركة سريعة من عزرائيل، كان ثور قد لفظ أنفاسه الأخيرة، وخرّ على المنضدة مشتتًا أكواب الفودكا من حوله. وضع عزرائيل

الغاضب روحٍ ثور تحت إبطه، ثم مزق خطاب الاستقالة إلى مزقٍ صغيرة، وحمل الروحِ وخرج مبتعدًا.

عاد عزرائيل الى غرفته مكتئبًا، أغلق الشبابيك جيدا، وأضاء لمبة السقف خافتة الإضاءة، كان بين خيارين أحلاهما مرّ؛ إما أن يواصل عمله كقابض أرواح لا يعرف لأي جهة يقبضها، أو أنه ينتحر ويتخلص من كل هذا البؤس المر... واحتاج الأمر لثلاث ساعات من التفكير، ليحسم قراره أخيرًا، وينحاز إلى الأموات الذين قادهم بيده إلى العالم الآخر...

كان آخر ما تركه، بعد أن انتحر برصاصة في الرأس، رسالة من عشرين صفحة، كان أسلوبه فيها رائعًا ومتمردًا، في الواقع لقد استطاع أن يُحطم به العالم الذي كرهه، وكتب في الرسالة إنه لسبب غريب، كان يستمتع بكتابتها، وأن أحد أسباب قراره بالانتحار، هو إحساسه بالضياع في هذا الكون الواسع، والغريب في ذات الوقت، وأنه لم يعثر على حبيبة بعد. كتب أنه أخذ المسدس من رجل عجوز، مقابل أن يجعله يعيش عامين إضافيين، فوق سنين عمره الثمانين.

في الصفحة قبل الأخيرة كتب بأن الكتابة شفته من رغبته في الموت، لكنه لا يحب أن يغير قرارًا اتخذه، قال: "ما ألذّ الكتابة! ليتني عرفتها قبل أن آخذ المسدس من ذلك العجوز!"

ملاحظة.

لا وجود لملاك يحمل اسم عزرائيل في شريعة المسلمين، إنما هو من الإسرائيليات التي اقتحمت ثقافة المسلمين في توقيت ما، كما لا وجود حقيقي للآلهة الرومانية القديمة أو اليونانية، ولا أعدُّ هذا تبريرًا.

موظف حكومي.

مؤخرًا لاحظ أن همته قلت كثيرًا، وأن ظهره أضحى يؤلمه كلما هَمَّ بصعود السلم، وعندما يصل إلى الطابق السادس يجلس على الأرض بمحاذاة الحائط، ثم يتنهد ويسب ويشتم حتى يهدأ، خمسة وعشرون عامًا وهو على هذه الحال، ينازع الحياة لقمة بلقمة وعمر بعمر، وبعد كل هذه السنوات يكاد يجزم بأن الله لا شك سيغفر له ما تقدم من سخط على سوء الحال وربما كفر بالنعمة أحيان.

دخل مكتبه البائس. .

فتح المكيف فخرج الهواء مغبرًا ضَجِرًا. .

قلب الملفات عدة مرات، فتحها ثم أغلقها. .

ثم رماها على الأرض.

لقد أضحى الأمر مملًّا فعلًا، السنوات تساقطت من بين يديه كما تتساقط حبات الخرز، وكل حبة تسقط في اتجاه مختلف، لكن الفكرة التي بدأت تراوده مؤخرًا كانت تبعث في نفسه قليلًا من التفاؤل،

وماجد اليوم هو القرار الذي اتخذه، قال في نفسه لا بد وأنه قرار حاسم وسأشرع منذ الآن في تنفيذه.

حمل معه كل متعلقاته، أقلام حبر، أوراق تعيينه، وبعض الرسومات وبواقي علب السجائر، ثم خرج، طاف بكل المبنى يحيي العاملين واحدًا تلو الآخر، وكأنه وداع مسافر، ثم خرج قاصدًا بيته.

في صباح اليوم التالي عاود روتينه اليومي، صعد السلم، تنهد قليلًا ثم سب وشتم، دخل المكتب وأخرج من جيبه قارورة سوداء، قلبها بين يديه عدة مرات وقال: عليّ أن أفعلها الآن وإلا فلن أجد فرصة أخرى، وبسرعة وقبل أن تراجعه نفسه، فتح غطاء القارورة ثم تجرع ما بداخلها، ورماها على الأرض.

وبعد لحظات أحس كأن يديه قد التحمتا مع جسده، وأن رجليه قد صارتا رجلًا واحدة، وأن جلده الرقيق العجوز قد بدأ يتغير، صار غليظا ونمت عليه بعض الحراشف، وصار لسانه طويلًا لدرجة لم يستطع إدخاله إلى فمه، لقد تحول إلى ثعبان ضخم، ملأ الغرفة طولًا وعرضا، ثم بدأ يلتهم ما حوله من أثاث وملفات، وعندما قضى على كل ما بالمكتب، خرج قاصدًا بقية المكاتب بالمبنى.

في صباح اليوم التالي خرجت الصحف بعنوان عريض، موظف مجنون يقتل سبعة من زملائه في مبنى حكومي واحد والسلطات تودعه دار المجانين، أما هو فقد كان يقص على زملائه المجانين داخل العنبر كيف أنه قتل الروتين الممل ويقول:

تخيلوا خمسة وعشرين عامًا وأنا أصعد السلم وأنزل!

ثم ضحك وقال:

الأغبياء بدل أن يكرموني أدخلوني مستشفى المجانين، لقد قتلته، لقد قتلتُ الملل.

الجَدَّة

في أحد صباحات الجمعة الساخنة من شهر أبريل، وقعت الجدة على الأرض ميتة، هكذا ودون أي مقدمات، وصف حفيدها الصغير تلك الوقعة بأنها كانت خارقة، حيث إن جدته دارت حول ذاتها مرتين، كأنها تطير بلا أجنحة، ثم توقفت ونظرت نحو صورة الجد الباهتة المعلقة على الجدار، وسقطت ميتة.

كانت ترتدي فستانًا قصيرًا عليه نقوش وردية اللون، وكأنها لم تكن في الثمانين، إلا أن أحدًا لم يُرجح أن يكون سبب موتها عامل السن، ولكنهم أجمعوا على أن سبب موتها هو الجن، نعم، قتلتها الجن بلا شك، وربما عملية الدوران تلك كانت محاولة منهم للتمثيل بها، إلا أنها قاومت ذلك بطريقة ما.

وهو ذات رأي شيخ المسجد، ذلك لأنه يظنها تكتب السحر، وعينها قوية وقاتلة، إذا نظرت لشخص ما، فإن شيطانًا وصفة بـ(الضكر)، يخرج من عينها ليتلبس ذلك المسكين؛ لذلك رفض أن يُصَلى عليها عندما ماتت.

وكثر حينها اللغط داخل المسجد، ما بين مؤيد للأمر وآخر معارض له، ويبدو أن ميكروفون المسجد المعطل منذ أسبوع، قد دبت فيه الحياة من جديد، فطار عبره صياح الرجال داخل المسجد ليقرع أذان النساء في البيوت، فخرجن صوب المسجد تقودهن جبورة بائعة الداردومة، وهي تقول: الجدة ربما كانت تصنع السحر، إلا أنها ليست كافرة، فقد كانت تشتري مني الفطائر مثل سائر المؤمنين.

الأساطير التي تدور حول الجدة منذ زمن بعيد، جعلتها علكة دائمة في أفواه الناس المتعطشين للأخبار، وبما أن اليوم كان عطلة، فإن أحدًا لم يذهب إلى عمله، وجنازة الجدة كانت فرصة جيدة للترويح عن النفس التي أثقلتها مشاق أسبوع كامل، تجمع خلق كثير حول المسجد، اكتظّ المكان بالرجال والنساء والأطفال، وحتى العجزة وعابرو السبيل، دفعتهم حاسة التخبر لمد رؤوسهم قدر المستطاع، علّهم يلتقطون شيئًا مما يحدث.

في النهاية، أذعن الناس لكلام الشيخ، وحملوها دون صلاة إلى المقابر، وهمُّوا بوضع جثمانها الثقيل داخل القبر، لكن رجلًا غريبًا قفز من بين الجموع وهو يصرخ: لاااا يجوز دفن الكفار والسحرة في مقابر المؤمنين.

صاح رجل آخر يقف في نهاية الصف: وأين ندفنها إذًا؟ هل نلقيها في العراء لتنهشها الكلاب؟ أجاب الرجل الغريب في هدوء الواثق من

كلامه: إن سمعتم كلامي، فأنا أقترح أن ندفنها في مقابر الخواجات، على الأقل هم كفار مثلها...

وسمع أصواتًا من بين المشيعين تشيد باقتراحه، وفي تلك اللحظة، شقَّ صفوف المشيعين شابٌّ صغير قصير القامة، يحمل كتابًا في يده اليسرى، أنه من أولئك المثقفين الذين يجيدون الثرثرة والمغالطات، قال: يا سادة ومن قال إن المدفونين في مقابر الخواجات كفار؟ من الذي أعطاكم الحق بذلك؟ إذا كان الدين ذاته لم يخاطبهم بذلك، من أنتم؟ ولم يُلقِ له بالًا، وارتفعت الأصوات تهتك ستر المكان، وأصبح الجميع كلًّا يُثرثر على هواه، ويدلي برأيه حتى وإن لم يسمعه أحد.

ولكن بعد ذلك بلحظات، حدث أمر فظيع، لم يجرؤ أحد على ذكره لاحقًا، حتى أنهم حاكوا حوله الخرافات، وقالوا إن من يتحدث عما دار تلك الليلة فهو لا محالة هالك بداء عضال، واخترعوا التعاويذ الطويلة كي تقي أطفالهم ما يُظن أنه سيحدث، الانتقام.

إلا أن حفيد الجدة الصغير تجرأ ذات يوم وحكى ما حدث بالضبط. قال: عندما كثر اللغط حول كيفيه دفن جدتي، وهي جنازة هامدة بين أيدينا، سمعنا فجأة صوتًا قويًّا يخرج من الكفن يشبه صوت جدتي وهي غاضبة، ساعتها صمت الجميع وقد داهمهم الخوف، ثم انشق الكفن إلى نصفين اثنين، وخرجت الجدة حية، كما يخرج الكتكوت من البيضة، كأن شيئًا لم يصبها، ولعلك تتوقع أن تلك

الجموع قد أطلقت العنان لرجليها، إلا أن ذلك لم يحدث، وكأن أقدامهم قد انغرست في الأرض، ولها جذور ضاربة العمق، عندما خرجت الجدة من كفنها كانت ترتدي ذات الفستان ذا النقوش الوردية، إضافة لذلك فقد كانت عيناها حمراوين كالجمر المتقد من شدة الغضب، وأسنانها تصطك أكاد أسمع صريرها...

المهم أنها طارت من حولنا –البعض يظن أنه تلبسها ملك الموت، ثم أمسكت شيخ المسجد والرجل الغريب والشاب المثقف الذي يحمل كتابًا، بقوة رهيبة لم أعهدها بها، ثم عجنتهم كما تفعل بقطع العجين، دفنتهم ثلاثتهم أمامنا في القبر.

ثم تحرر الجميع عندما اختفت جدتي، وأطلقوا العنان لأرجلهم، لقد جروا كما لم يفعلوا من قبل.

العادات الأكثر انتشارًا بين رؤساء العالم.

مؤخرًا بدأ الرئيس يمارس عادة غريبة، بدأ يحك كرشه الكبيرة بأطراف أصابعه ويحرك الشحم المترهل مرة نحو اليمين وأخرى ذات الشمال، حتى أن سكرتيرته الجميلة فارعة الطول دعجاء العينين قد لاحظت، وأشارت إليه بذلك، هو نفسه لاحظ مداومته على تلك العادة الغريبة، إضافة الى عادة أخرى، هي التفكير والقلق المتلازمين.

أشار عليه طبيبه النفسي بالسفر إلى باريس، وأن يأخذ جولة في حدائق الين كورت، وأن يمتع ناظريه بمناظر بوت شيمون الجميلة، هكذا سيتغلب على القلق والضجر، لكن التقارير التي بين يديه لا تسمح بذلك، المثقفاتية يشنون عليه حربًا شعواء عبر النت، الفيس بوك والتويتر، والطلاب يتظاهرون بين الفينة والأخرى لطلبات تافهة لا تساعد في بناء البلاد، هكذا كان يقول لطبيبه.

وما هي إلا أيام حتى أزبد الشارع وأرغى، ضرب أسداسًا لأخماس، وبلغت القلوب الحناجر، طافت الشرطة بالطرقات بحثًا عن فلول

المتظاهرين والمحرضين، ثم اعتقل أمن الدولة كل رؤساء الأحزاب المعارضة ومعهم بعض الموالين للنظام لأغراض التغطية.

في ذلك اليوم أخطأت سهام النوم أجفان الرئيس، رفضت حسناؤه مداعباته الفاترة، قام من سريره وخرج من الغرفة، توجَّه إلى مكتبه الرئاسي الفاخر داخل القصر، فتح التلفزيون واستقر به جهاز التحكم على تلك القناة الأجنبية، رأى شعبه في الأخبار يموج ويتلاطم، ترشقهم الشرطة بالبومبان ويرشقونها بقنابل الملتوف، تسارعت ضربات قلبه حتى اهتز صدره فزعًا، رأى الناس يهتفون ضده، بعد أن كانوا يبجلونه أيما تبجيل، يهتفون باسمه ويرفعونه على الأكتاف، فيبدو مزهوًّا وهو يلوِح بيده، ماذا دهاهم اليوم؟ وأي طارئ طرأ؟

الأسعار كما هي منذ زمن، سياساتنا تجاه المواطن لم تتغير، لم يتغير شيء، لماذا الثورة وعلى ماذا؟

اختلطت الأسئلة في رأسه وهو يشاهد مذيع الأخبار يعلن عن سقوط أول شهيد في هذه الثورة المباركة، تبًّا له إلى جهنم وبئس المصير، يستحق القتل بل أكثر، يستحق التعذيب والسلخ.

اتصل بوزير اعلامه، ماذا فعلت؟ لم أفعل شيئًا، تبًّا لك أيها البائس، اخرج إليهم وأخبرهم بأننا سنقوم ببعض التسويات والتعديلات، افعل أي شيء قل أي شيء، المهم هدِّئ غضبهم.

في الصباح خرج عليهم الوزير الشبع عبر التلفزيون الحكومي، وكأنه فلقة من القمر، حوله الحراس يطوقونه، أيها الشعب، استجابة لرغباتكم، سنقوم بالآتي.. .

ابتسم الرئيس لأول مرة منذ ان انطلقت شرارة ما يسمى بالثورة، أحس بالأمان وغدًا سيخرج عليهم ليحملوه على الأعناق، فتح تلك القناة الأجنبية مجددًا، ويا للهول! تضاعفت أعداد المتظاهرين، قال وقطرات العرق تملأ جبينه، كيف؟ كيف؟

جاءه صوت المذيع مفسرًا لهولاته وتساؤلاته، زاد المتظاهرون أضعافًا مضاعفة، أحسوا أن مطالبهم مُجابة، فرفعوا سقفهم وطالبوا برأس الرئيس.

ماذا؟ يطالبون برأسي؟

رفع سماعة الهاتف ويده ترتجف بعنف، طلب وزير داخليته، لماذا لا تتحرك؟ ضاعف أعداد الشرطة، اضربوهم بالرصاص الحي، اقتلوهم، افعلوا أي شيء، وقبل أن يضع السماعة اخترق أذنه صوت المذيع، الآن سقط شهيد آخر، شهيدان، ثلاثة، عشرة، مئة والغضب يزداد، والرحى تطحن بلا هوادة، ولم يصدق الرئيس ما سمع، تيبس مكانه بلا حراك، حاول عبثًا فهم ما يجري لكن بلا فائدة، ثم بدأ يفكر، هل أخرجُ عليهم عبر التلفاز؟ لا، قالت سكرتيرته الحسناء، هل تذكر

صديقك الرئيس في الدولة المجاورة، ماذا حدث له عندما خرج على المتظاهرين؟

رمى قامته داخل الكرسي، فاهتز كرشه مصدرةً بعض الضوضاء: لقد كرهتهم جميعًا، كلهم خونة، لقد كرهت هذا البلد، كرهت أهله، فقراءه، أغنياءه، سادته ومسؤوليه.

في الصباح خرج السيد الرئيس على شعبه، بخطاب صاخب، أعلن فيه تنحيه عن منصب الرئيس، قرأ عليهم آيات من القرآن، وآيات من الإنجيل، وخاطب الملحدين والليبراليين، وتحدث إلى المثقفين، عله يمتصُّ غضبهم.

ثم ومن فوره، وعلى الهواء مباشرة، سقط على الأرض.

التزم الفراش الأبيض، أو بالأصح سريرًا محترمًا بإحدى المستشفيات الخاصة منفذًا وصية صديقه الرئيس في إحدى الدول المجاورة، هو الآخر لزم الفراش هربًا من الشعب.

غُفيلة

عندما خرجت غُفِيلة من منزلها تتوكأ على عصاتها التي نخرها السوس، وألقت نظرة على حظيرة الأغنام، عرفت أن المعزة السوداء قد اختفت، دارت حول الحظيرة فوجدت آثارًا كثيرة لأقدام صغيرة حافية، في اليوم التالي تفاجأت أن التيس الأسود قد سُرق أيضًا، جن جنونها وأخذت تسب أمهات اللصوص لصًّا لصًّا، وعند المساء حضنت بندقيتها ونامت وسط الأغنام، لكنها في الصباح اكتشفت أن الحمل المرقع قد اختفى، لذلك في المساء التالي قررت أن تظل متيقظة حتى الصباح، أحضرت عدة القهوة وشربت خمسة فناجين حتى أحست أن بطنها الضامر قد امتلأ، إلا أنها نامت في حدود الفجر، وعندما داعبت أشعة الشمس الحارقة أجفانها النعسة، قامت لتجد أن حملًا آخر قد اختفى، وظلت هكذا حتى استيقظت ذات صباح وحظيرتها الكبيرة خالية من الأغنام، بكت حتى بح صوتها الهرم، وأطلقت عدة رصاصات في الهواء ثم تهاوت على الأرض.

ظلت تحرس حظيرتها الفارغة لمدة طويلة، وتنتظر اللصوص أولاد الكلب، لعلهم قد نسوا شيئًا.

عن الحب

قَال صديقي (بيْنما كانت بَائعة القهوة تَضع أمامنا فنجاني قهوة ساخِنين): لِماذا لا تكتُب عَن الحُب ولماذا لا تتَحدث عنه؟ هلْ هو أمر سَيئ، أم أنك تَخاف؟

قلت: لنقل فَقط أنني أُفضل السُكوت، خاصة في الأمُور التي لا أفهمها، والحُب أمر لا أستطيع بلوغه كَلامًا وكتابة.

قَال: سأُعلِمك إذًا، الأمر أسهل مِما تظن، تخيل معي، أطْلق عنان خَيالك

تخيل أنك الآن بِرفقة فَتاة جميلة، تَمشيان معًا على رصيف ما، وتَضْحكان، والآن أكمل أنْت باقي المشهد، وأخبرني مَاذا رأيت؟

قُلت: إنها فَتاة جميلة، نحيفة بَعض الشيء وطويلة قليلًا.

قال: إممم مَاذا أيضًا، أكمل.

قلت: يَبدو أنها أجْمل مما تتخيل أنتْ.

قال: نَعم، أكمل.

قلت: تبدو رَائعة أيضًا، ويَبدو أنها تقرأ كثيرًا و...

قال: لا فائِدة فيك على الإطلاق، تحْتاج لجلسات طَويلة، حسنًا لنقُل إنكما جلستما معًا لاحتساء القَهوة، قل لي: ماذا قلتَ لها؟

قلت: حَسنًا، أخبرتها أن لها عَينين جَميلتين، تذكرني كثيرًا بجدتي المُتوَفاة و...

قال مُتعضًا: جدتك المتَوفاة؟

قلت: حسنًا حسنًا، قلت لها إني أخاف مِن المجهول، يرعبني الامتحان مَهما يكن بَسيطًا، وترعبني أعين الفَتيات عندما يراقبن خُطواتي، وأكثر ما يفزعني أن أجد نفسي وحيدًا ذَات يوم، وأظن أن الحُب هو أسوأ اختراعات البَشر، لأنه يُسبب لي وعكة في الكلام، ويَجعلني أهرطق أحيانًا.

قال: وأظنها قَامت قبل أن تُكمل حديثك وتركتك وحيدًا، كما سَأفعل أنا تمامًا.

ثُم ذهب بعيدًا، وتركَ لي فنجاني قهوة بارِدين، وأغنية رَديئة تنْبعث من مِذياع محاسن بَائعة القَهوة.

أصحاب حلوين

أمسَك يدها بلطف، ثُم دخلا إلى المطعم الفاخر الذي يراه لأول مرة، كان الجميع يرتدون بذات أنيقة، وربطات عنق ملونة بألوان لم يرها من قبل، يمسكون بأيدي حبيباتهم ويبادلوهن نظرات الحب الشريرة، بينما ظل النادل يتنقل بين الطاولات محاولًا أخذ الطَلبات بسرعة.

وفي مسرح المطعم كان هناك مجموعة من العازفين المغمورين، خمن ذلك لأنه يراهم لأول مرة أيضًا، في الحقيقة هو لم يَرَ عازفين من قبل، كانوا يعزفون ألحانًا وطنية قديمة، أجلسها على الكرسي ثم تقدم نحو العازفين، همس في أذن أحدهم (وقد خمن أنه المايسترو أو القائد) بكلمات أعقبها العازف بابتسامة رضًا وهو يأخذ من بين يديه شيئًا.

جلس على الكرسي ونادى النادل، وبعد أن ألقى نظرة سريعة على قائمة الطلبات، ولم يفهم شيئًا، مررها إليها، وقال مبتسمًا: اطلبي أنت اليوم، أنا واثق أنك ستختارين أشهى الطعام.

حملت القائمة بسرور، ثم بدأت القراءة بتمعن، وبعد دقيقة قالت: أولًا نريد كيكة اللوز، وأيضًا نريد فوليفان ومعه خبز فرنسي، شرطًا أن يكون ساخنًا ومن الفرن، قطع شمندر مقسمة مكعبات صغيرة، وطلبين بيتزا إيطالية سخنة، وأخيرًا ستيك فرنسي بالمشروم وكعكات المارشملو.

فغر النادل فاه متعجبًا، ثم زم شفتيه وبدأ يدون بقلمه البك وقائع الوليمة: وأنا مالي، ثم قال: دقائق ويكون الأكل جاهزًا.

أحس بأنه قد وقع لتوه في ورطة كبيرة، تنحنح: الأمر لا يحتاج لكل هذا التبذير سيدتي، أردت أن أُخبرك أني أحبك، وأريد أن أطلب يدك، ونشرب بعد ذلك نخب الحب، كأسين من الشامبيون المعتق وكفى.

لم تُبدِ الدهشة على وجهها، لقد كان الأمر وشيكًا ومتوقعًا، رفعت يدها في محاولة للكلام والتوضيح، ولكنها ما إن رأت الأطباق تتوالى على المنضدة حتى انشرحت أساريرها وبدأت في التهام الأكل بنهم، قالت والأكل يملأ فمها الذي أصبح مثل البالون: أنا يا عزيزي مخطوفة، بلعت اللقمة: أقصد مخطوبة، آسفة لأني لم أخبرك من قبل، ولكن بعد هذه الوجبة الدسمة. (رفعت كوب الماء وأخذت رشفة تلوثت منها أطراف الكوب وخالطت بقايا الطعام الماء). أستطيع أن أخبرك، لقد حدثتك عن ابن خالتي، بتاع الدهب، أتذكر؟ جاء قبل أيام وطلب يدي وأنا وافقت، عريس لقطة صحيح؟ ثم تابعت الأكل بشراهة، في عملية أشبه بالإبادة الجماعية: أنا وأنت أصحاب حلوين شديد.

ظل يحدق إلى وجهها وهو يتأمل مقدار الورطة التي وقع فيها، والمبلغ الكبير الذي سيدفعه لقاء الطعام: الأفضل أن أفكر في غسل الأطباق من الآن.

انتحار

أكمل قريبي خدمته في الجيش للتو، وعاد محمولًا على أعناق أصدقائه، كان ثقيلًا إلى حدٍّ ما ولكن واجب الصداقة جعلهم يحتملون الألم، وأقام أهل البلد من أجل ذلك حفلًا كبيرًا، استمر لعدة أيام، دون توقف، وكان عساكر البوليس عندما يداهمون الحفل بعد الواحدة صباحًا، يخبرهم أهل قريبي أن ابنهم ضابط كبير في الجيش، رغم أنه لم يكن سوى مجند، لكن عساكر البوليس كانوا يذعنون، ثم يجلسون لاحتساء شربات الليمون، ولم يكن والد قريبي ينسى أن يخبرهم أن هذا الليمون مقطوف مباشرة من الشجرة التي اعتاد الضابط أن يجلس في ظِلِّها أيام الإجازة.

ما لم يكن يعرفه أهل البلد أن ابنهم الطيب لم يطلق طلقة واحدة ضد العدو، من الأساس لم يكن يطلق على أي شيء، ولم يخرج يومًا إلى جبهات القتال، كان يفضل أن يعاقب بالوقوف لساعات متواصلة على أن يحمل البندقية.

غير أن ابنهم الطيب لم يكن جبانًا، ولكنه كان إنسانًا شفيفًا ورقيقًا، يكره الحرب وصوت النار، يكره أولئك الذين يرقصون فوق جثث الأبرياء، وكلما أشعلوا حربًا امتلأت جيوبهم بالمال والطعام، يكره

صوت الدبابة وهي تهرس الحصى تحت تروسها المتينة، يكره كل ماله علاقة بالموت، حتى أنه كره نفسه لأن قائد المعسكر أعطاه مسدس صوت، وقال له هازئًا: العب به في أوقات فراغك الطويلة.

في الليل كان قريبي ينام وحيدًا، بعيدًا عن الجنود جميعهم، ويحتضن دمية الدب الصغيرة، كان يسميه غاندي، لأنه يظنه داعيًا للسلم والحب، لكن جنديًّا ذا أصول هندية هدده ذات يوم، قال له: إذا رأيتك تطلق على هذه الدمية اللعينة اسم غاندي سوف أقتلع خصيتيك، وأطعمهما للكلاب، في الحقيقة سآكلهما وحدي لأني كلب.

خاف قريبي أن يفقد رجولته فقال: طيب أخبرني ماذا أسميه؟

قال الهندي: سَمِّه..... .

إلا أن قريبي لم يفعل ذلك، لقد خاف أن يتعفن داخل الزنزانة لو أنه سمى الدب بذلك الاسم، لذلك احتفظ بالاسم القديم، غاندي، وضم الدب إلى صدره حتى تهشمت عظامه القطنية.

في الصباح ينهض متثاقلًا، يبحث عن فرشاة الأسنان والمعجون، لكنه في أغلب الأحيان لا يجدهما، فيجلس على الأرض ويبكي كمن فقد عزيزًا، يبكي حتى تبتل لحيته الطويلة المهملة، المرأة التي تصنع الطعمية وتجلس في ركن قصي من المعسكر، عندما تراه من بعيد وهو يبكي كانت تظنه يبكي من خشية الله، كانت تقول: هذا السلفي البغيض، ثم تلوي بوزها الصغير، وتقول: لعنة أسيادي عليك.

قبل عدة أيام انتحر قريبي الطيب فجأة، قال المتحري أن الرجل الشاب ترك رسالة قال فيها إنه شعر باليأس بسبب الحروب التي ملأت العالم، وفضل أن ينهي حياته لعل العالم يكترث.

لكن صدِّق أو لا تصدق، العالم لا يكترث لله نفسه كيف يكترث لشاب بلحية طويلة.

في العزاء كنا حزينين لدرجة بعيدة، خاصة عندما أخبرنا أخوه الصغير إن ما تركه قريبي الطيب لا يتعدى العشرين جنيهًا، كان قد نسيها تحت المخدة قبل أن ينتحر، أخذت العشرين جنيهًا، وضعتها في جيبي، وقبل أن ينطق الولد الصغير بحرف قلت له: روح يا ود من هنا قبل ما أنسف رأسك بي بنية.

تبادُل أدوار

صَباحًا، في طَريقه إلى الروضة، يحمِل حقيبة بها سندوتش طعمية وبعض الألعاب الصغيرة.

رأى بنت الجيران لأول مرة، كانت تلعب بالطين أمام الباب.

صغيرة بما يكفي لتعجز عن إزالة الطين عن وجهها وشعرها المشتت، فكانت تزيده اتساخًا كلما حاولت مسحه.

توقف ثم صار يراقبها عن كثب، تأملها بعمق، واقشعر بدنه واشمئزَّ عندما رأى مادة مخاطية لزجة تسيل عبر فتحة أنفها، ثم تلعقها بلسانها.

عندما رأته هبَّت واقفة بفرِح، وانفرجت شفتاها بابتسامة كشفت خلفها فما مكسر الأسنان، ثم دعته إلى اللعب بحركة من يدها المتسخة.

كانت في طول ربع متر، ترتدي فستانًا حد ركبتيها، متسخة، حافية، قبيحة حقًّا، باختصار كانت تشبه رسومات الكرتون بشدة.

رفع وجهه إلى السماء، اللهم لا تبتلينا، ثم انصرف إلى روضته.

رغم أنه كان صغيرًا جدًّا ليفهم مغزى تلك الابتسامة، لكن السنوات تكفلت بذلك، عشرون عامًا غيرت الكثير، الفتاة صاحبة المخاطة صارت أميرة نوعًا ما.

ويا للمصيبة!

فقد حان دوره ليبتسم.

عنكبوت

في ركن الغرفة اليمين، فقط إذا نظرت نحو الأعلى، سترى عنكبوتًا شابًّا يبني بيته في همة ونشاط، بالفعل هو أفضل مكان لبناء عش الزوجية، وهذا المصطلح ربما لا يتطابق فعليًّا مع بيت العنكبوت، فالعناكب تفضل أن تطلق عليه اسم خيوط الزوجية السعيدة.

وإذا عدنا إلى العنكبوت الشاب، وسألناه عن سعيدة الحظ التي ستسكن هذا البيت الجميل، فإنه سيرفع كتفيه في حيرة ويقول ببساطة إنه لا يدري، وإنما هذا من قبيل العادة لا غير. في مجتمع العناكب ستفعل شيئين لا ثالث لهما، إما أن تبني بيتًا وتنتظر العنكبوت سعيدة الحظ، والتي يبدو أنها لا تفعل شيئًا في حياتها سوى الانتقال لعش الزوجية، أو أن تصارع الحياة في غابات الأمازون، هاربًا من أمام حرباء ذات منظر نزق، أو مجاهدًا للفكاك من بين أسنان عنكبوت أكبر بلا جدوى.

لذلك العناكب لا تستوي مثلًا، لقد فاضلتُها الحياة بعضها على بعض، وعنكبوتنا الشاب يضع الآن لمساته الأخيرة على منزله السعيد، بالنسبة له بالطبع، فالبشر سيرونه مجرد قذارة على الحائط، يحتاج تنظيفه إلى عملية استنفار قصوى، وربما اضطرت الأم إلى جر ابنتها من

أذنها اليمنى –نسبة لانشغال الأذن الأخرى بالهاتف، حيث يصبُّ حبيبها في تلك اللحظة جام لعناته على الأم، التي تضع خرقة بالية في يد ابنتها وتقول: نظفي الأركان من العنكبوت.

هي بالطبع لم ترَ كيف أن العنكبوت الشاب جاهَدَ ليتم بيته السعيد، وها نحن نرى الآن، وبوضوح تام، أن الصالة الرئيسية أوسع من المعتاد، لعله بعد أن يتزوج سيشاهد فيها الدوري الإنجليزي برفقة أصدقائه العناكب «رابطة محبي الإسبايدر يونايتد». وستضطر زوجته العنكبوت المسكينة أن تعد لهم الطعام وأن تنظف مخلفاتهم اللزجة، ولن تنفعها أبدًا التوسلات أو الشكوى... يقال إن عنكبوتًا قصيرة أحست بالضجر ذات يوم، وشكت إلى حماتها وأخبرتها أن ابنها أذاقها الويل، وأصدقاؤه لا يكفون عن المجيء ليل نهار، فعلقتها حماتها من أرجلها الخلفية حتى ماتت، لذلك لا مفر من التعب والجهد.

الآن العنكب الشاب يركب السراميك الإيطالي على أرضية البيت، يا له من مجتهد ومثابر، لكن عليه أن يتذكر أن ألواح السراميك ستبتل بالماء وربما تسقطه ذات يوم على ظهره، مسببة له الانزلاق الغضروفي، وهو مرض خطير بالنسبة للعناكب، فتخيل عنكبوتًا مصابًا بانزلاق، كيف سيتسلق الجدران؟! لكن لا بأس طالما أن عنكبنا الشاب لم يصب به حتى الآن، فبطبيعة النفس العنكبوتية، أنها لا تتعظ بغيرها، وقد قيل قديمًا في لغة العناكب، العنكبوت السعيد من اتعظ بغيره، لكنهم لا يتعظون.

تبقى له البياض والبوهية، وتركيب الستائر والفرش، ثم بعد ذلك يدعو إلى وليمة كبيرة احتفالًا بإكمال البيت، كرامة يذبح فيها عشر ذبابات، وثماني خنافس، وبالطبع لن أحدثك كثيرًا عن الحشرات الصغيرة المشوية، لأنك تعرف الطعم بالتأكيد، وسيدعو للوليمة العائلة المالكة والتي كالعادة لن تشرّف الحفل، لاعتبارات كثيرة، ومنها أن البروتوكول الملكي لا يسمح بذلك، بالله عليك متى كانت آخر مرة رأيت فيها عنكبًا ملكيًّا يتحاوم بين المعازيم؟ بالتأكيد لم ترَ، لأن الملوك يظلون حبيسي القصور. وطبعًا سيكون الحفل فرصة سانحة لاختيار عروس ذات قوائم ثمانية، كل قائمة هي حكاية في حد ذاتها، أحم أحم .. دعونا نغض البصر وننظر إلى أمر آخر غاية في الخطورة، نحن نرى الآن فتاة عملاقة، تربط قطعة قماش على رأسها وتحمل مكنسة، يا للهول! إنها تنظف الأركان .. ولقد دمرت بيت العنكب الشاب، السراميك والحوائط، غرفة الجلوس والتلفزيون، كل شيء ضاع، والعنكب الشاب المسكين زهقت روحه وتدلى من طرف المقشة، وسقط مباشرة على جسد الفتاة، التي أُصيبت بالرعب والهلع، وبدأت تصرخ مستنجدة بحبيبها على الهاتف: الحقني، العنكبوووت.

الإخوة الأعداء

في ذات المساء الذي حدثت فيه تفجيرات الخرطوم، وتلونت سماؤها بلون البارود، عدت مسرعًا إلى غرفة طلال، عندما فتحتها شممت رائحة البارود والورق والحبر السائل، وعندما أضاءت المصباح الصغير المعلق في السقف، رأيت شبح طلال على الحائط، كانت ملامحه قاسية ويحمل في يده علبة سجائر برنجي، قلت ضاحكًا: ستوقد هذه السيجارة في الجحيم أيها الكلب.

فتشت الأدراج الكثيرة المتراصة مثل الحجارة بعضها فوق بعض، لم يكن لها أي معنى، إذ إنها كانت فارغة، وبعضها تسكنه العناكب، خمنت أنه ربما يملك مكانًا سريًّا يضع فيه أسراره، قادني جيش النمل الزاحف نحو الحائط الخشبي إلى ثقب صغير، وبمساعدة السكين أصبح فجوة عملاقة، قادتني إلى غرفة أخرى شممت فيها رائحة الموت النتنة، وكانت مليئة بالأدراج أيضًا.

في الدرج الأول وجدت مجموعة من الصور القديمة، في إحداها يظهر طلال وهو يحمل بندقية صيد، ويرفع بيده علامة النصر، يا له من رجل بليد! عيناه وديعتان إلى حد بعيد، لا تبدو عليه ملامح القسوة التي رسمناها فيه على غفلة وهو جثة متفحمة، وخصره كان أجمل دون الحزام الناسف، وتذكرته بوضوح أكثر في الصورة الثانية، لقد

التقطتها بنفسي، لذلك تقرفصت على الأرض وتذكرته يجلس بقربي ويقول: عليك اللعنة! التقط لي صورة وأنا أشرب القهوة.

قلت له: القهوة ستظهر في الصورة وبوزها ملوي.

ضحك وقال: هذه قهوة مودرن يا شاب.

أرجعت الصور إلى مكانها، لا يمكن أن أستعيد كل تلك الذكريات الجميلة الآن، فأنا أهيئ نفسي الآن لأصبح من كارهيه، سأصير عدوه الحي الأول.

في الدرج الثاني وجدت مجموعة من المسودات، كانت لروايات غير مكتملة، يعلوها الغبار، وعلى هامش الصفحة الأولى لرواية اسمها الانفجار، كتب عبارة: هذه الرواية ربما يكملها أصدقائي ذات يوم.

ضحكت، لقد ضحكت بصوت عالٍ، صوت مسموع، وأحسست أن الدجاجات في الحظيرة قد راعهن صوتي الجهور، لذلك تخيلتهن في الجحيم الآن برفقة طلال، وهو يتلذذ بطعم الأفخاذ المحمرة.

حولت تلك الرواية إلى مزق صغيرة، ثم رميتها على الأرض، مَن من أصدقائك يمكن أن يكمل هذا الهراء؟ فبعضهم مات في ذات الانفجار، وأنا أصبحت عدوك اللدود، وحبيبتك التي تزوجت بالدكتاتور من زمن بعيد، أصبحت حبيسة الجدران الأربعة، هل تذكر عندما قطعت شرايينها ذات مرة، لتعتق روحها من ذلك السجن؟ ولكن لم تمت،

أخبرتني بعدها أنها نزفت دمًا باردًا طعمه كالفراولة المجمدة، ظلت لساعات تنتظر أن يتوقف ذلك السيل الأحمر ويتوقف معه النبض، لكن ذلك لم يحدث، كان الطبيب يمسك بيدها ويقول: زجاجة دم بسرعة يا أغبياء.

في الدرج الثالث وجدت ما كنت أبحث عنه، أنا لم أكن أعلم بوجوده مطلقًا، ولكني توقعت حدوث الأمر، كان طلال كاتبًا ذكيًّا، ولن يفوته أن يكتب هذا الجواب، وأن يضعه في درج منفصل ليصل إليه أول من ينبش هذه الأغراض، لكن فاته أني سأكون أول الواصلين، لم أستطع الانتظار إلى الصباح، فالمكان سيعجُّ برجال الأمن والصحفيين النزقين.

وجدت جوابًا بخط يده وقد زيَّله بتوقيعه، كان توقيعًا قبيحًا، شخبطات كثيرة متراكبة يعضها فوق بعض، ماذا كان يفكر حينها هذا الأبله؟ قال في بداية الجواب: يا سادة أنا لست إرهابيًّا، فعلًا كنت أدعمهم بعواطفي، لكني لن أقتل أحدًا، المهم إن حدث وقتلت أحدًا فأنا لم أقصد ذلك، أيمن متورط في الأمر، لا أعرف لأي جهة يعمل، لكنه سيجد طريقة يجعلني بها أرتدي حزامًا ناسفًا ذات يوم، ربما سيخطف حبيبتي أو ربما أمي أو أخي الصغير، أنا ضعيف أمام هؤلاء ولا بد أني سأوافق أن أموت من أجلهم، أرجوكم أنا لست قاتلًا.

لم ينتهِ الجواب بعد، لكني مزقته ومضغته بأسناني، ثم بلعته، أنت فعلًا لست إرهابيًّا يا صديقي، وأنا لست إرهابيًّا أيضًا، لكنه العالم الذي نعيش فيه، يحدد لنا الأدوار التي سنلعبها دون أن يعطينا فرصة الاختيار، الآن أنت مجرم يا صديقي، ستقبع في قعر الجحيم، ولن تخرج منه يومًا، وداعًا يا صديقي العزيز.

موظف تحت التدريب

وبعد تناول وجبة الإفطار بلحظات بسيطة، كان المدير يلهث جاريًا وقد أحس بأن طعام الإفطار لن يهضم أبدًا، ومن خلفه كان الموظفون يُهرعون نحو مصدر الإزعاج، دخلوا جميعًا إلى غرفة الاستقبال، ليجدوا حارس الأمن يتعارك مع رجل ما.

وبعد تعب شديد كلَّف أيادي الموظفين جميعًا، ما عدا المدير الذي وقف بعيدًا يداعب كرشته الممتلئة، فقد تم فضّ الاشتباك بين حارس الأمن والرجل الذي بدا عجوزًا جدًّا ليفعل ذلك، إنه رجل شاحب اللون ويبدو كأنه قد خرج من حفرة عميقة للتو، حمل عصاه الواقعة على الأرض وأصلح طاقيته بحركة سريعة، ثم جلس على كرسي الاستقبال غير مبالٍ بالمدير ولا الموظفين المشدوهين.

قال المدير ممتعضًا: من أنت؟

أجاب العجوز: أنا الدائن، أريد مالي، ألف جنيه، من هذا الرجل؟

وأشار بيده ناحية موظف نحيل الجسم، ولكن الموظف خرّ على الأرض منهارًا وهو يقول: يا للفضيحة! يا للفضيحة!

ظَلَّ الرجل العجوز جالسًا وكأن شيئًا لم يكن، وأخذ يهش ذبابة ركّت على أرنبة أنفه وقد انشغل بها تمامًا وتجاهل كل الحاضرين، أما

حارس الأمن فقد امتلأ غيظًا وحاول أن يجذب العجوز من يده، الا أن الموظف النحيل كان يقف أمامه ليمنعه ذلك.

قال المدير بغضب: علينا أن نبلغ الشرطة، هذا العجوز تجاوز حدوده، ولن أوافق على هذا السلوك الشائن.

قال العجوز: أريد مالي، ولو أحضرتم العالم كله لن أبرح مكاني، أجعلوا هذا الرجل يدفع ما عليه من مال وأنا سأخرج طائعًا بسلام.

نظر المدير إلى الموظف النحيل: هل كلامه صحيح؟

قال الموظف النحيل في خجل: نعم يا سيدي، لقد ماطلته كثيرًا، ولكن لا أدري كيف علم بمكان عملي.

قال العجوز: لقد تبعتك، واكتشفت أنك مخادع، أنت موظف وتدعي العطالة.

قال الموظف النحيل: يا سيدي أنا ليس لديَّ عمل، وهنا أنا مجرد موظف تحت التمرين، لم أكمل أسبوعي الأول حتى، ارحمني أرجوك، ولا داعي للفضائح.

ثم توجَّه بالكلام إلى المدير في محاولة للتبرير، بينما نزلت دمعة صغيرة على خده: يا سيدي لقد استدنتُ مالًا من هذا الرجل قبل سنوات، كنتُ مريضًا لا أقوى على العمل، والآن هو يطالبني بماله، وما زلتُ عاجزًا عن الدفع.

أدخل المدير يده في جيبه بانزعاج، وأخرج مئة جنيه، ورمى بقية موظفيه بنظرة حادة فهموا مغزاها على مضض، وأدخلوا بدورهم أياديهم في جيوبهم وأخرجوا باقي المبلغ، ثم أعطوا الرجل العجوز إياها الذي ما يزال عابسًا.

عدّها بسرعة، وعندما اطمأنَّ أن المبلغ مكتمل، ظهرت على شفته ابتسامة خفيفة، وانصرف مبتعدًا من المكان.

أما الموظف النحيل، فقد ارتمى على الأرض باكيًا وهو يصيح: لا أدري لماذا كان عليّ حشركم في مثل هذه المسائل الخاصة، اعذروني رجاء.

لكنهم بدوا سعداء وقد أحسوا بالإنجاز، قال أحدهم وهو يرفعه من يده ويربت على كتفه: نحن يا أخي الواحد فينا للكل، والكل للواحد، لا تقلق.

مساءً وفي منزلٍ منعزلٍ عند النهر، كان الموظف النحيل يجلس مبسوطًا، يشرب الشاي بالبسكويت، وعلى يمينه كان يجلس الرجل العجوز يعد المال على عجل: هذه خمسمئة لي وهذه خمسمئة لك، لقد قسَّمت المال بالنصف، رغم أن تمثيلك كان رديئًا يا ولد.

قال الموظف النحيل: اسكت، أنا الآن أفكر في ضحية الأسبوع القادم، أين سأكون موظفًا متدربًا يا ترى؟!

جيران

ضربات قوية على باب الشقة، جعلت تسفاي الحبشي ينتفض مسرعًا نحو الباب، لقد عرف الطارق دون أن يراه، كان هذا السيد عبد العظيم جارهم في الشقة الأرضية، لا بد أنه قد انزعج من ضربات (الفندك) القوية على الأرض، فتح تسفاي الباب بحذر شديد فوجد عبد العظيم واقفًا والغضب يملؤه حتى أخمصي قدميه، كان رجلًا قصيرًا ممتلئ الجسم ذا كرش بارزة وجسم ضخم تظهر عليه الراحة، قال مخاطبا تسفاي بصوت عالٍ وحادٍّ:

-انتو حبش ما عندكم دم، مجانين انتو؟ ياخ عارفين الساعة كم؟ شغالين دق دق دق دق.

-نحن نعمل قهوة اسي.

-ياخي قهوة تقوم ليك في نص راسك دا، دايرين ننوم انتو ناس مخكم دا ضارب، والله ثم والله اسمع دق تاني اجيب ليكم البوليس

-(قال تسفاي بخوف) جيب بوليس جيب بوليس، نحن ناس تمام وعندنا إقامة.

-وأنا بنتظر البوليس؟ على الطلاق إلا آجي أضربكم رصاص بيدي.

توقف ضرب الفندك تلك الليلة ونام عبد العظيم قرير العين، في اليوم التالي بدأ عبد العظيم وأولاده استعداداتهم لإقامة حفل الحنة للابن الأكبر منعم مبكرًا، وقد دعا إلى الحفل كل الجيران، ما عدا الحبش، وكان ذلك بتوصية من عبد العظيم، وفي المساء جلس المدعوون في فناء العمارة الواسع وهم يرتشفون العصير وصوت الفنانة الهابطة يتكشف بعهر، مصدرًا كل أنواع الإزعاج والضجة السمعية:

-الشيييخ سيرووووه، الشيييخ سيرووووه...

-جناي البيريدو احننو في ايدو واحضر جديدو...

سمع عبد العظيم طرقات خفيفة على الباب، بصعوبةٍ يسمعها من جاور الباب، وعندما فتح الباب وجد شابًّا حبشيًّا طويل القامة خمري الون، يرتدي ملابس نظيفة وقد ظهرت على وجهه المستدير ابتسامة جميلة:

-سلام، أنا تسفاي، ممكن ندخل نحضر حفلة

-لأ ما ممكن، انت عزمك منو؟ (قالها عبد العظيم بغضب وهو يهم بغلق الباب).

-عزمني منعم.

-لأ ما عزمك ولا حاجة كذاب.

من بعيد، والحنة تملأ يديه الاثنتين، ورأسه مربوط بقطعة قماش حمراء، ويبدو سعيدًا، صرخ منعم ضاحكًا: أنا عزمتو.

لكن كلماته كانت قد ضاعت وسط صخب المدعوين وصوت الفنانة الهابطة.

قال تسفاي بيأس:

-طيب انتو ازعجتونا، كل يوم انت تقول ما في فندك ما في فندك، طيب أنا اقول ما في غناية خلاص الساعة حداشر.

-انت جاي تأمرني أنا؟؟ يلا انقلع من هنا بدل ما اديك شلوت في وشك.

عاد تسفاي إلى الشقة غاضبًا، وطلب من زوجته أن تعدَّ البُنَّ الحبشي الآن، وأعطى كل فرد من أفراد العائلة فندك، وأحضر لنفسه فندكًا، وطلب من الجميع أن يضربوا الفندك بقوة، تعالت الأصوات واختلطت فكانت شيئًا لا يُطاق:

-هندي الشمس غااااابت ترم ترم ترررم

-دق دق دق دق دق دق

-ويييينو القمر طيب

-دق دق دق دق طاااخ كرع كع

-عيييين العدو صاااابت ترم

-كع كع كع دق دق دق دق دق دق

-نسيتني ياحبيييب

-كع كع كع دق دق دق

قفز عبد العظيم من مقعده والشرر يتطاير من عينيه:

-دي ماطريقة دي والله، ديل ناس مزعجين، على الطلاق إلا أجيب ليهم البوليس أسي.

اتصل عبد العظيم بالشرطة، وبعد دقائق حضرت سيارة الشرطة وطلب العسكري أن يرى عبد العظيم وتسفاي أمامه، وجدهما شخصين يمثلان النقيض بحقٍّ، رجل نحيف طويل، وآخر قصير سمين، نظر العسكري إلى تسفاي وطلب منه أوراق الإقامة، وعندما تأكد أنه مقيم بصورة شرعية التفت إلى عبد العظيم وقال:

-الساعة اطناشر، عندك ترخيص تعمل حفلة لحد وكت زي دا؟

ضحك عبد العظيم ضحكة متقطعة، وكأنه كان يفكر بين كل قهقه والأخرى، وأمسك العسكري من يده واختفى به وسط ظلام الشارع، خلف سيارات المدعوين، حاول تسفاي أن يرى ماذا يفعلان، لكنهما كانا قد اختفيا عن عينه، وبدأ يسمع همسات عبد العظيم دون أن يفهم ماذا يقولان، لكنه فهم أن عبد العظيم لن يُعاقب تلك الليلة.

في مساء اليوم التالي، ذات الطرقات الخفيفة تنقر الباب، لا يسمعها إلا جار الباب أو صاحب أذن خفيفة، فتح عبد العظيم الباب فوجد تسفاي يرتدي أجمل ملابسه وبصحبته زوجته وبناته، يحملن فناجين القهوة والسراميس، وقد ارتسمت على وجوههن ابتسامة جعلت عبد العظيم يركز نظره عليهن، ثم يتنبه إلى تسفاي ويقول:

-أيوة نعم داير شنو؟

-جناي اليريدو.

-شنو؟

-جينا نشوف جناي البريدو.

-كيف يعني جاي تشوف جناي البريدو؟

ظهر له من بعيد منعم وهو يتقدم نحو الباب، عندها صرخ تسفاي:

-أيوة أيوة منعم منعم جناي البيردو هو دا.

وصل منعم مسرعًا إلى الباب وطلب من تسفاي الدخول هو وبناته، لم يشأ عبد العظيم أن يكسر كلام ابنه حفاظًا على هيبت، دخل تسفاي وبناته واستقبلتهم سمية زوجة عبد العظيم بجفاوة، وهمَّت بجلب العصير إلا أن زوجة تسفاي أخبرتها أن اليوم (بن) فقط دون العصير، جلس الجميع فرحين، وعبد العظيم كاد يحطم أسنانه من شدة الغيظ، أحضرت زوجة تسفاي فنجان القهوة لعبد العظيم، وبغيظ شديد

ارتشف رشفة من الفنجان، وفي الحال تغيرت ملامح وجهه إلى النقيض، أعجبته تلك القهوة الحبشية، قهوة جعلته يجتر ذكريات قديمة كان يظنها قد مُسحت، وأحس بأن حبات البن التي صنعت منها هذه القهوة لا بد أنها نزلت من السماء، أكمل عبد العظيم فنجانًا وفنجانين وثلاثة حتى أوصلها لسبعة، ضحك تسفاي وقال:

-أنت ماسوداني كيييف، السوداني يشرب كاسين بس

صعد تسفاي وعائلته إلى منزلهم وهم يرجون أن تنجح هذه المبادرة في تبريد جوف عبد العظيم، إلا أنها أشعلت النيران بوقود لا ينطفئ، صرخ عبد العظيم مناديًا زوجته سمية:

-انتي ليه ما بتعملي قهوة زي دي.

-والله ديل تخصصم قهوة، أنا عرفتي في الطبخ دا.

-والله طبخ زاتو ما بتعرفي ليه، طيب شيلي الملايات القعدو فيها دي وغسليها، وغسلي اكياس المخدات

-سجمي؟ مالم الناس ديل نضاااف وسمحين وكمان انت بي خشمك دا شربت بي فناجينم

-لأ، قلت ليك غسليها وتاني ما يدخل بيتي دا.

ثم فجأة وهو في تلك الحالة الهائجة، سمع ابنه المراهق محمود وهو يناجي نفسه ويقول:

-والله حبش سمحين، عندهم بت سمحة سماحة، لونا أصفاااار.

ولم ينتبه الفتى، لوالده الغاضب الذي عاجله بضربة رمته على الأرض، لم يتحرك بعدها لأسبوع.

لم يستطع عبد العظيم الانتظار حتى تخرج شمس صباح اليوم التالي، أخرج هاتفه المحمول واتصل بصاحب الشقق وطلب منه الحضور فورًا، المسألة مهمة لا تتحمل الانتظار، وعلى الفور حضر علم الدين صاحب العمارة يرتدي عراقي النوم ودخل شقة عبد العظيم:

-لا إله الا الله يا علم الدين، اختار يا أنا يا الحبش

-بسم الله حصل شنو.

-الناس ديل ما بتعاشرو، ما دايرم جمبي، غير كدا بناتم سمحات بخربوا لي أولادي.

-والله يااااااا عبد العظيم الناس ديل بدفعو تلاتة ونص وانت بتدفع ألف ونص.

-يعني انت تفضلم علي أنا ؟

-لالا طبعًا أنت زول ود بلد وما بفضلو عليك حبش، لاااااااكيييييييين

-لا لكن ولا ما لكن، يا أنا ياهم وليك الخيار أنا مستعد ارحل أسي دي.

-لالا كدي أنا بتصرف.

ومن فوره صعد علم الدين إلى شقة تسفاي، وأخبره بضرورة الرحيل، وحتى لا يظلم هو وعائلته فقد اقترح عليه علم الدين أن ينتقل إلى فيلته الجديدة بحي آخر، وهي فيلا طور البناء، إلا أن الطابق الأرضي قد انتهت فيه عمليات التشطيب، وإكرامًا له فهو لا يريد ثمن الإيجار حتى يعثر له على شقة جديدة، وافق تسفاي من فوره على العرض الجديد، وأخطر عائلته بالرحيل، ولم ينسَ قبل أن يذهب أن يرسل كيسًا كبيرًا من البن الحبشي المسحون، المصنوع بعد منتصف الليل إلى عائلة عبد العظيم.

شعر عبد العظيم بالانتصار وسط خزي وعار أحست به عائلته، اليوم حقق انتصارًا كان الرهان فيه صعب جدًّا، أخبر علم الدين وحذره أن يؤجر الشقة لحبش مرة أخرى، أولاد البلد أولى بالسكن.

طلب علم الدين من عبد العظيم أن يبحث هو عن جاره الجديد، لن يتحمل عبء طرد عائلة كاملة من أجل عبد العظيم مرة أخرى، علم الدين كان يعلم أن الإشكالية ربما تكون من فعل عبد العظيم لذلك تكبَّد خسارة الإيجار، كان يظنُّ إن إرضاء ابن البلد أولى من إرضاء الغريب.

تعالت تكبيرات عبد العظيم وهو يأمر ابنته الصغيرة بأن تحضر العصير للسكان الجدد، عم الطريفي وأولاده، كانوا هم الجيران الجدد،

تأكد عبد العظيم بنفسه من وطنيتهم، علم أنهم من مدني، كان يقفز فرحًا بين الأغراض وهو يحمل مع العمال، ثم يصرخ مرة أخرى طالبًا القهوة الحبشية من زوجته وأن ترسلها للجيران الجدد، ارتسمت الفرحة على محيا عبد العظيم بعد أن أقنع علم الدين بأنه يخدم جيرانه الجدد ويخفض لهم الإيجار ألف جنيه، لم يخف عم الطريفي اندهاشه بهذا الترحاب والقبول، لكنه لم يكن يعلم أنه ترحاب بطعم الانتصار الذي جاء أخيرًا، في تلك الليلة جذب عبد العظيم بطانيته إليه ورقد على سريره والفرحة تملأ قلبه، أخيرًا تخلص من كابوس (دق دق دق) إلى الأبد.

لكن فجأة:

-دق دق دق دق دق كو كو كو كو

-بسم الله الرحمن الرحيم، أنا شكلي هلوست بالحبش، قل هو الله أحد قل هو الله أحد.

-دق دق دق دق كو كو كو كو كع كع كع

-لالا دا ما هلوسة، ديل الناس الفوق لينا، (باكيا) ديل جيرانا الجداد.

نفس تلك الطرقات والخبطات على الباب، بنفس تلك القوة والغضب يملأ وجهه، الشَّرر يتطاير من عينيه، مد كرشه أمامه ورفع

كمِّي العراقي مستعدًّا للضرب، فتح عم الطريفي الباب والابتسامة تلامس حلمة أذنه:

-أووو جارنا الموقر عبد العظيم، اتفضل، اتفضل.

-يااااخ ما داير اتفضل أنا داير اعرف، انتو بتدقو في شنو.

-نحن بنعمل قوهة حبشية.

-بتعملوها بالليل ليه؟

-عشان بالنهار بنكون في الشغل.

-ياخ انتو من مدني القهوة الحبشية دايرين بيها شنو؟

-أهااااها (ضحكة تحمل داخلها كثير من الكلام) نحن أصلًا حبش، أي والله زي ما بقول ليك، جدنا وحبوبتنا جو واستوطنو في مدني من زمااااان وجابونا نحن، أي والله زي ما بقول ليك، ولو لاحظت اسمي لمن وقعنا العقد، الطريفي عبد الله الطريفي تسفاي، وطبعًا القهوة دي حاجة جوانا كدا ما بنخليها، أي والله زي ما بقول ليك كدا.

-(بيأس) يعني انتو حبش؟

-أي.

الحقيبة

هل تعلم أين ذهب ذلك الجنيه الذي أعطيته الطفلة الصغيرة عيديةً؟ هل تظن أنه تبعثر فقط في الهواء عندما مزقته أمامك؟ في هذا العالم هناك الكثير من العملات التي يمزقها الناس يوميًّا، وكلها لا تذهب مع الريح، ولكنها تأتي هنا، في هذه الحقيبة الصغيرة، هذه الحقيبة التي وجدتها ذات يوم ملقاة في مذبلة، أخذتها بغرض الاستفادة منها في شيء ما لا أذكره، ولكن في الليلة الأولى وفي عتمة الليل وسكونه، سمعت خشخشة ما آتية من جهة الدولاب، فعرفت أنها من الحقيبة، وبحذر شديد فتحتها لأتفاجأ بكمية مهولة من العملات المختلفة، أغلبها كان مقطوعًا إلى نصفين أو ثلاثة، ومنذ ذلك اليوم وأنا أحتفظ بهذه الحقيبة، الكنز.

أقوم كل ليلة بإعادة لصق العملات، ثم أقوم بفرزها كل واحدة حسب قيمتها واسمها، وفي الصباح أخرج قاصدًا تجار العملة لأقوم باستبدالها جميعًا، حتى الجنيهات أقوم باستبدالها بحجة أنها ربما تتقطع في جيبي، وصرتُ أعيش على هذا النحو منذ عشرين سنة.

اشتريتُ بيتين وسيارتين ومصنعًا لتصنيع البلاستيك، وسافرتُ عشرات المرات حول العالم، زرتُ ذات مرة مدينة لندن، ثم البندقية ثم باريس، لقد عشتُ أيامًا جميلة هناك.

تخيَّل أن تكون مُعدمًا إلى أبعد حد، ثم تعثر ذات يوم على حقيبة تلد لك المال كل ليلة، عليك أن تشكر أطفال العالم جميعًا على عدم تقييمهم للمال، وأن تشكر المعتوهين الذين يلقون بالأموال التالفة في مكب القمامة، وأن تشكر الحكومات التي تصنع عملاتها من أوراق سهلة التمزيق والتلف.

لكنك ربما تستغرب لماذا أخبرك بكل ذلك؟ ببساطة لأن كل ذلك قد انتهى، لقد خسرت كل شيء، اختفت الحقيبة ذات ليلة، بحثتُ عنها كثيرًا ولم أعثر عليها، لكن قبل أيام بدأت ألحظ جاري الذي قد تغير حاله فجأة، ذلك الموظف المسكين لم يعد كما كان، فقد صار يتعامل مع ذات التجار الذين تعاملت معهم، وقد اشترى الكثير من الملابس الجديدة، وأعاد ترميم البيت، أنا لا أريد أن أشكك فيه، لكن سأراقبه عن كثب، وإن تبين لي أنه سارق الحقيبة سأقتله، فالتعلم ذلك جيدًا، ولتعلم أنني الفاعل.

نملة جريئة

ذات يوم، تجرأت نملة شابة وسكيرة على قرص ابن وزير الدولة في فخذه. ولأنها كانت دولة ديموقراطية فإنه لا يحق للوزير أن يقتل النملة، لذلك قدَّمها للمحاكمة.

وُضعت النملة داخل علبة زجاجية أمام القاضي، وقد امتلأت قاعة المحكمة عن آخرها. قال القاضي مخاطبًا النملة: أيتها النملة الشابة والسكيرة، أنت متهمة أنك في يوم كذا الساعة كذا أقدمتِ على قرص ابن الوزير في فخذه اليمنى، ما قولك؟

بدا أن النملة لم تسمع ما قاله القاضي، وعندما أعاد القاضي كلامه وضعت يدها على أذنها وقالت: هه؟

غضب القاضي وأشار إلى الحاجب أن يرفع غطاء العلبة الزجاجية حتى تسمع النملة ما يقول، ثم أعاد كلامه من جديد.

هذه المرة سمعت النملة ما يقال ولكن صوتها لم يكن يصل إلى القاضي، كان القاضي يسمع همهمة فقط.

نهرها القاضي قائلًا: أنا لا أسمعك ارفعي صوتك.

صرخت النملة: أخرجني من هنا إذًا لتسمع ما أقول يا حضرة القاضي.

ووسط احتجاج الجمهور وأهل ابن الوزير الصغير والمجني عليه قرَّر القاضي إخراج النملة ليسمع أقوالها، وضعها الحاجب أمام القاضي مباشرة، وهي مُطَأْطَأَةُ الرأس وبعض الدموع تنزل على خديها.

قال القاضي مجددًا: أيتها النملة الشابة والسكيرة، أنت متهمة بقرص ابن الوزير في فخذه اليمنى، ما قولك؟

سمعت النملة كل شيء، مسحت دموعها بطرف بمنديلها الصغير وتمخطت، وأخذت تتلفت تستكشف المكان، كان ابن الوزير جالسًا في الصف الأول وهو يحكُّ فخذه المحمرة، والده الوزير بجانبه يواسيه، سيدات كثيرات ينظرن إليها بحقد، وبضعة رجال في آخر القاعة يغطون في النوم من كثرة الملل.

لم تنطق النملة بكلمة واحدة، لكنها فجأة جرت بسرعة نحو القاضي وانحشرت داخل ملابسه، وبعد دقيقه بدأ القاضي في حَكِّ ظهره وبطنه وفخذه وأرجله، لقد قرصته النملة في كل مكان من جسده.

وعندما همَّ الحاجب بالبحث عنها لم يجدها، كانت النملة الشابة والسكيرة قد هربت إلى جحر قريب، وهناك دخلت إلى الحانة وشربت الكثير من الخمر وأطلقت الكثير من النكات السمجة التي جعلت الجميع يبكون من الضحك.

رصاصة

لَوني شَاحب وجوْفي محشوٌّ بالبارود القَاتل، أول يَوم أبصرتُ فيه النُّور داخل مَصنع السلاح، كنْت ألمع كحدقةٍ صغيرة في عين طفلة، وككل الرّصاصات الصغيرات، قَررت أن أكون مفُيدة، وإن كنت قد خَلقني قدري رصاصة قاتلة، فَسأقتل الأشْرار إذا، سأدافع عن الأبرياء والجِياع.

لكنْ .. أول عمل قُمت به في معركتي الأولى، قَتلتُ طفلًا صغيرًا لا يكادُ يَفهم معنى حليب أمه، لمْ ألبث في جوفه طَويلًا، ولكن اخترقته إلى الجِهة الأخرى، واستقررتُ في جوْف الأرض، أنا الآنَ هناك مُنذ سنوات، يغتالني الخجل والنَّدم على ما فعلت، وصار لي شَكل إنْسان في حجم رَصاصة، لا أفعل شيئًا غير أني أتَقرفص واضعة يديّ على ركبتيّ، وأبْكي بدموعِ شاحبة اللّون، دموعِ مِن بارود قاتلٍ.

صديق صدوق

تعالَ يا صديقي لنتحدث قليلًا، ولنجلس معًا ونحتسي القهوة، أنا أعلم أنك لا تحب القهوة، ولكني سأطلب فنجانين، وأشربهما وحدي، أنا أفعل ذلك في كل مرة وأسألك نفس السؤال، هل تريد البدء بالحديث، وأعرف أن إجابتك هي السكوت، ربما لأنك لا تحب الكلام رغم أنه وظيفتك الأولى، في الحقيقة هو كل حياتك، أنت تعيش من أجل الكلام، لكن لا بأس، أنا سأمسك زمام الأمور، وأتحدث.

هل تعلم شيئًا، البارحة اشتريت كيس تسالي من محطة جاكسون، لم يكن جيدًا، كانت تسالي رديئة إلى حد بعيد، وعندما صعدتُ إلى الحافلة أردتُ أن أتخلص منها، فافتعلت حوارًا سمجًا مع فتاة جميلة كانت تجلس قرب الشباك، وفي أثناء حديثنا عن تعرفة المواصلات الغالية أهديتها كيس التسالي كاملًا، من حسن حظي أنها أدخلته إلى حقيبتها الكبيرة دون أن تأكل منه، ربما كانت ستلقي عليَّ وابلًا من السباب والشتائم.

حقيبتها لافتة للنظر، قالت إنها طالبة جامعية، لكن حقيبتها الضخمة والثقيلة لا توحي بذلك، عندما رفعتها على كتفها بدت وكأنها عتالي في سوق أمدرمان يهم برفع طرد كبير، قالت إحداهن ذات مرة إنها تحمل في حقيبتها مطواة ومولوتوفًا وطلقات صغيرة لمسدس ضائع،

لكن لاحقًا عرفتُ أنها تحمل أدوات التجميل، كوافير متحرك تستعمله وقت الحاجة، يعني طوال اليوم.

المهم أنني تخلصت من كيس التسالي النتن، لكن الآن تراودني خواطر عن فتاة أخرى لا تُلقي لي بالًا، وفي بعض الأحيان تبادلني قليل نظرات، إنها كارثة حلت على دماغي المهترئ، ليس على قلبي طبعًا، لأنه توقف عن النبض منذ سنوات طويلة، ولم يعد يبالي كثيرًا.

هل تعلم، أنا أعرف أنها تعجبك كثيرًا، لأنك تراها على الدوام، ما إن ندلف من باب الجامعة حتى أشير قائلًا: (انظر إنها هناك تجلس على الكنبة، وتهش ذبابة غتيتة أعجبها المكياج السائل بسبب الحرارة)، إنها لا تبدو متضايقة، بل يبدو أنها معجبة بتلك الذبابة الملحاحة، أنت لا تعلق كعادتك، وتظل صامتًا، أه يا كلب لو عرفت ذات يوم أنك تحبها لقطعت رقبتك الغبية.

هل أزعجك بثرثرتي؟ هل تظنني إنسان فارغ وبلا هدف؟ تبًّا لك، أنا أيضًا أظنك فارغًا وبلا هدف، وكان يمكن أن أستبدلك بأي صديق آخر، ولكن لم يحن الوقت بعد لذلك، عموما يا صديقي سيكون فراقك صعبًا عليّ، ولكنها سنة الصداقة.

أنا أكملت فنجان القهوة الأول، ولم أعد أرغب في المزيد، دعنا نسكت الآن، ونلملم حكاياتنا المهترئة، ماذا؟ أنت أيضًا مهترئ؟ فعلًا

لقد أوشكت بطاريتك على النفاد، دعني أُطفئك، فهنا لن أجد لك شاحنًا.

إحراج

في قاعة كبيرة مليئة بالحضور، صعد رجل سمين إلى المنصة، صعد لأنه أحس أن من الواجب عليه إلقاء خطبة عصماء أمام الناس، لكنه حينما وقف هناك بدا له المكان ضيقًا للغاية، وشعر كأنه محشور ولا يستطيع التنفس، فكَّر أن يترجل دون أن يقول شيئًا، أن يهرب من عيون الناس، لكنه في الأخير قال: سألقي عليكم نكتة مضحكة، كان جدي يقصُّها على جدتي، والتي ظلت تقصُّها على أمي، وأمي لم تقصَّها عليَّ أبدًا لكنني سمعتها من جدي مصادفة.

وعندما سمع الحضور النكتة .. لم يضحك أحد، بدوا وكأنهم لم يفهموها، وكأن على رؤوسهم الطير.

وبعد لحظات قصيرة، بدت له كأنها ألف عام، قالت امرأة قصيرة تجلس في الصفوف الخلفية: نكتة سمجة، أيها القذر الوسخ.

ساعتها أحس الرجل السمين بالخزي والعار، قال في نفسه: لم يكن عليَّ الصعود إلى هنا، لا بد أني أمزح.

وترجَّل عن المنصة. ولم يَرَه أحد بعد ذلك.

حوار من طرف واحد.

أتذكر أنّه كان يكرهني، يُلاحقني باستِمرار، ويسُبني بلغة لا أفهم لها معْنى.

لا شيء هُنا يعني له أكْثر مِن مجرد أنّه شيء فَقط، وعلى الجَميع أن يَضعوا له ألف حِساب، حتّى الطُّيور الملونة التي تحُط على فروعِ النِيمة، تضَع له حسابًا ورهبة.

اليومَ رأيته راقدًا على الأرض وسط الشّارِع، يتلوى بفعل الألم والمرَض، وكأن دوره قَد حان ليمثل دور الضّحية، في مسرح الظلام، لكنه حال البسيطة، تُوصِل بِيد وتدفَع بأخرى.

جلستُ بقربه أُطالع وجهه وَهو يستجديني، كَأنه يقول: افعل شَيئًا، إني أموت، لم أستجبْ له فأعرض عني، يظنني شَامتًا، لست شامتًا يا صديقي.

ورأيت نَملة صغيرة تمْشي على رأسه، تَتخطى حَاجبيه دون أن يرمش أو يُحرك ذراعه ليبعدها، صارت النملة صَاحبة سلطة، وفي يوم ما كَان يسْحقُها بنظرة، دَخَلت أذنه فحركها بِتعب، خَرَجت بتؤدة ودخلت إلى أنفه، وحَاول جاهدًا أن يشهق ويزفر.

هلْ خطر لك ذلك من قبل؟ أن تؤول إلى وهن بَعد قوة؟ لم يجبني، ولكني أجزم أنه فهِمني، والآن هُو ينازع الروح، ينازع كونًا فِي جسده، جنة ونار، وسَنوات قليلة تَأبى أن تأفل.

هل من الإنصاف أن تموت هكذا؟

فَقط، على قارعة الطريق؟ دون أن يبْكيك أحد

أعني، هَل تظن أن هذا عدل؟

وماذا يقُول عنك الله فِي هذه اللحظات؟

هلْ تظنُّ أنه تركك هكذا لأنه يُريد موتك، أم أنه يتْرك سنة الكون تَمضي عليك؟

العجيب أن سنة الكون تَبدو ظالمة أحيانًا.

البَعض يرى نفسه مَركز الكون، والجميع من حوله يطُوفون

وآخرون لا يروْن شيئًا، مَا هم إلا ذرات غبار عَبرت نافذة العالم إلى الموت الآخر، وأنت رأيْت الاثنتين.

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، نَظر إليَّ بيأس أو اعتذار، لا أدري، ثُم أسلمَ روحه، رأيتها وهي تَخرج في صورة كلب صغير، وكانتْ تبدو أكثر سَعادة، ربت بِيدي على ذيله، خِفت أن ينتقل إليّ المرض فأبعدتها، وتَمنيت أن يهبه الله حَياة أخرى في مَكانٍ آخر.

وأن يكون كَلبًا جميلًا.

مصباح

عِندما كنْتُ مصباحًا جَميلًا، ذا ضَوء أبيض وجاهِر، عمِلتُ في السِجن بدوام كَامِل، كُنت أضيء الرواق الطّويل داخل العنبر.

فِي أحد الأيام، قَام السُّجناء بثورة مدَمرة، تعَرضت فيها للكَسر، وأصبَحتُ بعْد ذلك أعجز عن الإضَاءة.

تَوقعت أن يقُوم المسؤول بِتغييري، ولكِنه لم يَفعل، بقيتُ عَلى ذَلك الحَال زمنًا، حتّى سئِمت، فقَررت أن أصيِر إنسانًا.. وأمرِي لله.

على الأقل

قبل مدة اخترعتُ جهازًا صغيرًا، يقيس درجة الهلع في قلب الرصاصة، وأيضًا مشاعر الحب التي يحتشد بها صدرها، وذلك عندما تنطلق في رحلتها الأخيرة نحو قلب رجل ما، منذ أن يضغط المهووس الزناد، إلى أن تتحول الرصاصة إلى فُتات وتلفظ أنفاسها.

أنا أعلمُ جيدًا أن الرصاصة عندما كانت مفككة إلى عناصرها الأولية في الطبيعة، كانت طيبة القلب، ولقد قاسَ أحدهم درجة الحب في الحديد والجبال والمحيطات، وجدها كلها تعج بالحنين نحو البشر، ولكن الرصاصة ما إن تجتمع جزيئاتها في هيئتها الأخيرة، الهيئة الهندسية الشريرة والقاتلة، تصبح فتاكة، ولم يفكر أحد أن يقيس إن كانت تحب ضحيتها أم أنها مغلوبة على أمرها، اخترتُ للتجربة شابًّا عرَّف نفسه بـ (ناشط سياسي)، ورجلًا معتوهًا لا يفقه شيئًا، أعطيتُ المعتوه بندقية بها رصاصة، وأجلستُ الناشط على بُعْدٍ معين، وهذا البعد ليس عبثيًّا، هو نتيجة حسابات رياضية دقيقة ومعقدة، ولن أُطْلِع عليها أحدًا، ووضعت الجهاز في منتصف طريق الرصاصة، وعندما أطلق المعتوه رصاصته..

لم يسجل الجهاز أي تفاعل، بل إنه أصرَّ على أن الرصاصة لا تمتلك قلبًا، غير أن الدم تطاير في المكان، ومات الناشط حتى قبل أن أقيس الحب الذي ينبض في قلبه.

إممم .. على الأقل تخلصنا من أحد الناشطين.

الملعون

"قلت لها يجب أن نفترق لوقت قصير، لكنها ذهبت وتركتني إلى الأبد."

كان حزينًا جدًّا عندما مسح لحيته، لقد نمت لحيته بكثافة خلال أيام قليلة، والدموع حفرت مجريين على خديه المتشققين.

قال: «أنت تعلم، لقد أدمنت الكحول، طبعًا ليس كالكحول الذي يتناوله الآخرون، نحن متدينون لذلك نتناول الشربوت، أصنعه وحدي هذه الأيام، مخي الآن ثمل إلى حد بعيد، هل ترى ذلك؟»

ثم أدار رأسه عني بثبات ناظرًا نحو النافذة الصغيرة، وتوقفت دموعه، وقال بسعادة:

"لم تصدق، ما إن قلت لها يجب أن نفترق حتى هربت بلا عودة."

أخذ رشفة أخرى خجولة من فنجانه، وبصقها على الأرض.

"كنا في المول نتسوق، شربنا العصير معًا، بعدها تجولنا بين المحلات، ثم قلت لها لنفترق."

ضحك بصوت عالٍ، وأضاف:

"كنت أقصد لنفترق داخل السوق، لا أن تتركني وتذهب إلى الأبد."

ثم نظر إلى جيبي المنتفخ وقال: "هذه علبة سجائر؟"

ودون أن أجبه، أخرجت العلبة ومررتُها إليه، قال:

"من الطبيعي في مثل هذه الظروف أن أتناول الحشيش والماريجونا، لكنك تعلم أيضًا، لا أستطيع فأنا مؤمن ملتزم."

انتظرته لدقائق، كان صامتًا يمتص السجار على مهل، ثم يخرج الدخان على شكل حلقات، وما إن ترتفع الحلقة في الهواء حتى ينفث فيها باقي أنفاسه، لتتحول إلى شكل فوضوي جميل.

نظر إليَّ من جديد وقال: "لا يجب أن أبكي، أنا رجل، الرجال هنا لا يبكون، البكاء للنساء، لكني لا أستطيع النسيان يا إلهي."

نظر مجددًا نحو النافذة وقال: "نحن في الطابق العاشر الآن، لقد أتتني فكرة."

نهض من مكانه ثم اتجه صوب النافذة، وفتحها على مصراعيها، حينها أدركت أنه يود الانتحار والفكاك من هذا العبء الثقيل، لو

كنت مكانه لفعلت ذلك دون تردد، لكنه عاد أدراجه مجددًا، وكان أكثر حزنًا من ذي قبل.

"لا أستطيع الانتحار يا صديقي، ما هذا التعب! أخاف أن أموت فأجد مَن يعاتبني في العالم الآخر، يا لها من دوامة عجيبة!"

وأضاف قائلًا بعد أن عدل جلسته، وبدا كمن خطرت على باله فكرة عجيبة لا يمكن كتمانها: «ولماذا أموت من أجلها أساسًا، إن من يتركك بلا سبب لا يستحق هذا الحزن، عليها اللعنة كانت قبيحة للغاية، لكنها كانت في نظري جميلة، لن أكذب عليك، إلى الآن أراها جميلة."

ارتسمت على ملامحه علامات الجزع، واتكأ على المنضدة باكيًا، كان الحزن يطوف فوق رأسه مثل سرب من الهياكل العظمية، حملت علبة سجائري وخرجت من الغرفة، لم يكن بيدي أن أساعده، الملعون!

حمار أنت

ممنوع البول على الحائط يا حمار. توجد حمامات بالداخل.

وكانت هذه الكلمات البسيطة المكتوبة بخط رديء، قد أعادت إليه بعض صوابه فأغلق السوستة من غير سخط، مشى مترنحًا نحو الداخل المذكور، أرجله النحيلة تجاهد التعب والكرش الكبيرة التي لا تتناسق مع منطق جسده الهزيل.

لم تكن الحمامات التي بالداخل، تختلف كثيرًا عن الحائط القذر، فهذه الغرف الصغيرة تبدو أسوأ، غير أن المكان أكثر اتساخًا، صنبور الماء ...، لم يجد الصنبور من أساسه، كان مكسورًا ومحشوًّا بالأكياس، قال: سأجرب الجرار، ولم يكن من الجرار إلا أن أصدر صوتًا حزينًا، يشبه شخير عشرة رجال نائمين بعد سهر ثلاث ليالٍ.

قال: ما علينا، نسويها كدا.

حاول إغلاق الباب، ولكن الترباس كان مخلوعًا، وبصعوبةٍ فإن الباب يمكن أن ينغلق مئة وسبعين درجة، فكمية الأوساخ والفضلات كانت كفيلة بجعل الباب ينفر ويفضل العودة إلى الوضع المفتوح.

رفع السروال، وأغلق السوستة من جديد وخرج قاصدًا الحائط قائلًا: برة وجوة واحد.

وبعد أن قضى حاجته كتب على الحائط بقطعة من الفحم: حمار أنت.

كوب

عندما كنت كوبًا، لم أكن قبيحًا، ولكن صغيرًا وجميلًا، ذات يوم قدمتني الجدة لحفيدها الصغير، ووضعت في جوفي قليلًا من لبن الماعز.

شرب الصبي، وأسال لعابه على ظهري، لعاب لذج لم يشعرني بالارتياح، وكان ذلك اضافة لكرهي التام للبن الماعز، تمنيت حينها لو أني صرتُ إنسانًا، لأجري نحو الحمام وأستحم.

ولم أصبح إنسانًا، ولم تغسلني الجدة أيضًا، ولكنها وضعتني في درج مغبر، ونسيت أمري تمامًا، وجفَّ اللبن في جوفي واللعاب على ظهري.

والحمد لله.

مرآة

وبعد يوم عمل قاسٍ وممل، كان هذا آخر ما ينقصني، أن يُراقبني الرجل صاحب العينين الغاضبتين عبر مرآة السائق، وبينما كانت الحافلة التي يقودها الرجل العجوز، تسير بسلحفائية عهدتها دومًا في مواصلات السلمة، قلت في نفسي: لعله شابٌّ من أولئك، أو أنه مختل العقل، أو غبي، وانحنيتُ نحو الأمام حتى اختفيت تمامًا من أمام المرآة، وشعرت بظهري يفرقع فرقعة خفيفة ولذيذة، يبدو أن التعب تملكني من أعلى شعرة جافة يملؤها زيت السمسم المر في رأسي، وحتى ظفر أصبع رجلي اليسرى الأخير المكسورة، وتذكرت بعض تفاصيل الشاب، الذي سميته بالبغيض، عين محمرة وأخرى نصف بيضاء، وشعر أشعث أغبر لا يدل إلا على (البهدلة).

سألت: ما الذي يدعو أحدهم إلى مراقبة الأخيرين؟ غير فراغ الذات، أمثال هؤلاء الأغبياء لا يحملون أي فكر أو ثقافة، هؤلاء حمقى ليس إلا، كيف لي أن أنظر لأحدهم بهذه الحدة، هذا شذوذ ووقاحة.

رفعت رأسي من جديد، لأجد العينين المحمرتين تنظرانني بحدة، هو خلفي تمامًا، أو ربما بقربي أو أمامي، ولكني لم أستطع تحديد هويته، الا عندما وقفت ذبابة سمينة على أنفي ولا أدري ماذا فعلت به، ولكنه لم

يكن أمرًا جيدًا، وكنت مضطرًّا لحك أنفي فإذا بالشاب يحكُّ أنفه أيضًا، وحككتها مجددا فإذا به يحكُّ أنفه مجددًا، في ذات المكان وبنفس الطريقة.

صداقة

عندما أرادت البقرة «سَكُون» أن تتعرف إلى أصدقاء جُدد، كتبت إيميلًا تقول: مرحبًا، أنا سكون من السودان 22 سنة، أتمنى أن أتعرف إلى أصدقاء جدد من الهند.

بعد أيام وصلتها رسالة: مرحبًا أنا البقرة جايا من الهند 21 سنة.

فكتبت سكون: يا سلاااام، اها الجديد شنو، وعاملة كيف بالله مع الجامعة، أنا هنا كل يوم أتهرب من الذبح في الأعياد والمناسبات، الحياة هنا قاسية بالنسبة لبقرة شابة.

وصلها رد بعد يومين: لا حولاااا يا سكون، حاسة بيك والله، تعالي لينا في الهند، نحن هنا آلهة نُعبد من دون الله، وأمورنا ظاااابطة مع المشركين ديل.

ومن ذلك الحين قررت سكون السفر إلى الهند، وتزودت بالماء والأكل وشحنت موبايلها حتى 99 في المئة، وفي طريقها إلى الهند مرت بحلة كوكو، وهناك قبض عليها الأهالي وقالوا: ما شاء الله بقرة جاهزة بي مويتا وأكلا.

وحبسوها في الزريبة، وعندما أرادت أن تستغيث بصديقتها جايا لم تستطع، رغم أن تلفونها القراند يحوي في جوفه ثلاث شرائح، لكنها ضاربة كلها.

سوداني: خلصت الميقابايتس.

أم تي إن: خارج التغطية.

زين: سياسة الاستخدام العادل.

وظلت سكونة حزينة لعشرة أيام، وذبحها الأهالي في اليوم الحداشر، ووزعوا لحمها على الفقراء والمساكين.

أما جايا، الإلهة الهندية فكانت ترسل لسكون رسائل دون أن تتلقى ردًّا.

- يابت سكون وصلتي وين؟

- ألووو يابت أنا مابتكلم معاك ردي.

- كمان جابت ليها طناش، خلاص يازولة تاني لا بيني لا بينك.

رسالة إلى أم خزعبل

زوجتي العَزيزة، كَم أنت عظيمة! ولست أدري ماذا أفعل بدونك، لقد خَلصت من تجهيز حقائبي، تِسعة قِمصان اشتريناها معًا من سوق الحرامية، أتذكر أنها كانت عشرة قمصان ولكن أحدهُم سرق القَميص العاشر بيْنما كُنا نهم بالخروج من السوق، وستة بناطلين قديمة مَاركة بلوتو اشتريتها من أحد اصدقائي- ولم أخبرك بذلك- وسأترك خَلفي شُرابين وسبعة سَراويل، سأتركها في رفِّ الدولاب بالفُندق، لا تَقلقي سيقُومون بإعدامها فور العثور عليها ، وأخشى ما أخشاه أن تسكن بعدي امرأة عَجوز من بلاد البرد والثلج هذه، ثم تفتح الدولاب لتتفاجأ بكم من السراويل والشرابات، لا أظنُّ أنها سَتموت لأني غَسلتها قَبل شَهر من الآن.

وبعد ثمَانية عشرة شهرًا مُنذ أن التقت عَيناي بعينيك الجَميلتين، أتذكر ذلك اليَوم جيدًا وكأنه كان البارِحة ، كُنت أقف وسط المحطة أنتظر الحافلة، لَمحتك وأنت تتَسكعين بين الحَافلات بلا دَليل، تعلوك الحيرة والوقار، تحمِلين دفاتر قديمة علمت فيما بعد أنّك كنت تسرقينها من المكتبة- طَبعًا لم أخبر أحدًا بِذلك- وفجأة ظهر ذلك اللِّص

الطيّب الذي عرّفني بك ، كم أتمنى أن ألْتقيه من جديد لأشكُره وأعتذِر له عن اللّكمة القوية التي أردَته أرضًا، تخيلي لوْ أن ذلك كله لم يحدُث ، بالطبع كنت سألتقيك بطريقة أو بأخرى فحظنا مَقسوم منذ خط القلم أول كلِماته على اللّوح المحفوظ.

ومَضت الأيام سِراعًا يسوق بعضها بعْضًا، جَلسنا عند قيفة النيل نَشرب شاي حليمة بائِعة القهوة بروقان، وهي فِعلًا حليمة لأنها لمْ تَسألني عن ديوني المتراكمة حَتى الآن، النيل أمامنا مُباشرة، يجري مِن الجنوب إلى الشّمال في عنفوان وشموخ، يذكرني بِك دائمًا رغم أنه لا توجد أي علاقة مباشرة بينكما، ولكِن ربما لأنك فَتاة جَميلة، لا يهدها تكالب السُّنون عليها، تَمضي في مشوارها رغم العَقبات وتُحب الجميع، إنك نِيل آخر إذًا. تلامِسين الضفة بحنان فتسْقين الزرع، ويشرب الإنْسان والطير والبهائم وهوام الأرض، تَنمو حولك المدن لكِنك تزدادين جمالًا.

قُلت لك سَاعتها: إنني أحبك، أريد أن أتَزوجك.

احمرّ خداك والتفت تنظُرين ناحية الضفة الأخرى بِخجل –في الحقيقة خَداك لم يحمَرا لأن كلاضِيمك سمراء –ولكني خَمنت أنهما اِحْمَرا، نظرت ناحية الضِفة الأخرى أتأمل أيضًا، كانت تَقوم عليها مزرعة صَغيرة وشغوفة، يتوسطُها بيت من غرفة واحدة مَصنوع من القَش، وبَعض الصبية يلعبون الكرة على النَّجيل، ساعتها انفرج فَمك عن

ابتسامة مُضيئة وقلت: ما رأيك أن يكون هَذا منزلنا؟ أن نكون بسطاء مثل هؤلاء؟

وبالفعل يا مَكارة، كان هَذا مدخلك الأول لخداعي، ظننتك فتاة غَير متطلعة ولا ترغبين في الكثير، ولكن...

عزيزتي

عزيزتي زَوجتي العزيزة، كمْ أنتِ عظيمة وسَمينة، أتمنى من كُل قلبي عنْدما أعود أن أجِدك سَعيدة وقد خَفّ وزنُك إلى النصف، لا أحِبك سمينة، أحبك كَما تحبين نَفسك ولا أظنُّ أن البدانة تُعجبك –لن أخبر أحدًا –هَذا هو يومي الخَمسون بدُونك، ولكنك لا تُفارقين خيالي أبدًا، نَنام معًا ونصحو معًا، تصْنعين لي الطعام وتزيدين الملح، وأنا آكل وأمري لله، تَغسلين ملابسي بِصابون الحمام وتعَطرينها بالشامبو، وأمري لله.

وفِي الحقيقة أنا لا أدْري لمَاذا أكتب إليك الآن، ولَكن ربما هو شغف جَارف باغتني لوهلة، وَصعد بي إلى قمة الشّوق، وطرق فِي دواخلي أبوابًا قلَّ مَا أطرقها، ومن بيْنها طرق بابك فِي قلبي، فَعندما أتذكرك أحس بأني طفْل ضائع وسَط صحراء وقد عثر على أمه للتوِّ، بَعد أن أوشك على الهلاك، ولكن لِماذا يخرج طفل مِن منزله ليتوه فِي صحراء؟ طفْل غريب فعلًا.

المهم أنا أُحبك لذلك أكتب إليك. وَسأحضر لكِ هدية قيمة –كفتيرة أم أضان صُنع فِي الصين.

غزوة المريخ الكبرى

(عِندما أراد السودانيون بُلوغ الفضاء)

فِي محطة الفضاء المشْهورة سُودا طار في جَزيرة توتي، تجمعت حشود المُواطنين في انتظار الحدث الأعظم فِي هذا القرن، وهو وصول أول سَفينة فضاء سُودانية إلى المَريخ، في الصفوف الأولى كانت تقِف ربات البيوت والجدات اللائي حَضرن من (البلد) خصيصى لمُشاهدة الحدث، وفي الصف الثاني وقف المُزارعون والعمال ورؤساؤهم المُباشرون الذين لا يقِلون عنهم بهدلة وشحتفة وشيلة حَال، وبعدهم كانت جموع الطُلاب تقف حاملةً لافتات كبيرة تتَغنى بعظم الإنجاز التاريخي، أما الصفوف الأخيرة فقَد احتلها العاطلون عن العمل، وكانوا على ذلك يَتسلقون أفرع الأشجار وساعَة البلدية الكبيرة، من أجل الحصول على رُؤية أفضل.

وليْس مستغربًا أيضًا حضور الرئيس ومُعاونيه وكل رجال الأعمال المشهُورين، وحتى رؤساء الأحزاب المُعارضة كانوا حضورًا أيضًا.

ومَضت الساعات سِراعًا دون أن يتحرك المكوك الفضائي أو يتململ، ولكن الرَّئيس تململ كثيرًا وغَير جلسته عدة مرات، وعندما

أحس المَسؤولون بالإحراج، أعلنوا أن هُناك بعض النواقص فِي التجهيزات الداخلية للمَكوك، حيث وَجدوا أن كراتين البلَح ومعجون الأسنان وصَابون الفنيك قَد اختفت تمامًا، وكذلك الأقلام وَورق الاي فور والمَلفات السوداء الكبيرة، ولم يحتَج الجَمهور لكثير جهد ليستنتج أن الموظفين كانوا يسْحبون بعض تلك التَّجهيزات، ويرسلونها إلى مَنازلهم عند نهاية كل دوام، واستطاع الرّئيس وبكل وضوح أن يَرى أحد موظّفي مكتب شؤون العامِلين، وهو يقوم بدس قلَم حبر صيني حديث يعمل بطريقة حديثة في جيْبه الخلفي، ثم يتنحنح ويذهب مُبتعدًا.

وكَنوع من المُساهمة فَقد طُلب من الجمهور أن يضع جُنيهًا واحدًا في صندوق تم اسْتحداثه فِي ذات اللحظة، وسُمي صندوق دعم المكوك، وعلى ظَهر الصندوق كُتبت عبارة بارزة (جنيه واحد يفك زنقة المكوك) وهكذا جمَع موظفو الصندوق والذين تم تعيينهم لِلتو مئات الملايين مِن الجنيهات.

ولكن كَذلك لم تأتِ التَجهيزات بعد، وبعد السُّؤال والتقصي من اللجنة التي شكلها للتوِّ أيضًا الرئيس، وسماها لجنة تقَصي حقيقة صندوق المكُوك، فقد تبين أن نَائب مدير مكتب مدِير صندوق المكوك قَد غادر إلى بلد أجنبي وفِي معيته كل ملايين الصندوق، في تلك اللحظة كَانت بعْض العجائز في الصفوف الأمامية للْمواطنين قد لفَظن أنفاسهن في انتظار تَحرك المكوك، مما اضطُرَّ سيارات الإسعاف إلى شَق

صفوف المواطنين والوصُول إلى مكان العجائز الميَتات، وقد وصى الرئيس أن تُذاع أسماؤهن في نَشرة المكوك الجوية عقب خبر انطلاق المكوك، لتُخلد ذكراهن العطرة.

ولم يتحرك المكوك بعد، ولكن الفرج جاء أخيرًا، دَولة صديقة وجَارة تبرعت بكل مَصاريف التجهيز، لذلك تعيَّن على الرئيس أن يبْدي شكره لِتلك الدولة، وعلى مِنصة عالية ألقى خُطبة عصماء عدد فيها مآثر تلك الدولة، في الخلف كان بعْض العاطلين عن العمل يُعاكسون الطالبات في صفوف الوَسط، مما اضطُر الشرطة للتدخل وفَض تجمُّع العاطلين الذين رَفضوا التحرك قبل أن يُقلع المكوك.

وبعد اكتمال التَّرتيبات اللازمة، واطمئنان النّاس على المكوك ورواد الفَضاء أصحاب الخبرات الذين فِي جوفه الآن، فقد تقرَّر مَوعد الإطلاق بعد 3، 2، 1، ثم جاء صَوت خشن يشْبه صفع مئة نعلٍ على وجه حَائط جالوص: انطلاااااق.

ثُم ارتفع الصاروخ إلى الأعلى وَسط تصفيقات الحضور، وتهليل المُهللين، وعلى مرأى مِن الجميع كان المكوك قد ارتفع إلى الأعلى عدة مِئات من الأمتار، ثم ارتد عَائدًا إلى الأرض في وضعية مُخزية، توقفت المُحركات عَن العمل فجأة وسقط الصَاروخ فوق رؤوس العَجائز المتبقيات في الصفوف الأمامية.

كان أمرًا مذْهلًا وغريبًا، في الحَال كُوّنت لجنة لتقصي الحقيقة، وسُميت لجنة تقصي سَبب سقوط المكوك بِهذه الوضعية المحرجة واكتشفت اللّجنة أن شخصًا سَرق ميزانية الوقود، من هو؟ فاللجنة لم تَكشف عن الاسم بعد.

أما العَجائز المسكينات اللائي مِتن بسبب الانتظار والانفجار، فقد أوصى الرئيس بِتلاوة أسمائهن عَقب نشرة الساعة العَاشرة، تخليدًا لذكْراهن العطرة.

حدثَت هذه القِصة في عام 3000، بَعد أن تُوفي خمْسة رؤساء، ومَات كل الجيل المَوجود اليَوم.

جو حلو

فِي أحد الأيام المَنسية، من شهر مَنسي في سنة منسية، خرج رجل سُوداني عريض المنكبين من بيته، قاصدًا عَمله، كان يحمل على كتفه حقيبة صغيرة، وهاتفًا صغيرًا أيضًا، وكذلك مبلغًا صَغيرًا من المال، وكعادته كُل يَوم، سيقصد المحطة ليستقل المواصلات.

ولكن حدَث أمر فظيع، أمر لا يخطر على بال بشر، ويمكن أن يكُونوا بشرًا متطورين يعيشون في أوروبا، أو بشرًا أقل تطورًا يسابقون الفهود الشرسة فِي أدغال أفريقيا، فهذا الأمر بالذات لا يمكن أن يتوقعه أحد.

لقد غطت يا سادة غيمة كبيرة، أكبر مِما تتخيلون، أكبر قليلًا، غطت قرص الشمس الحارق تمامًا، ثم بدأ رذاذ المطر يتقاطر، لقَد كنا نشهد أمرًا فظيعًا أيها الأفاضل، لقد برد الجَو واعتدلت هيئته، وصار اليوم خريفيًّا مغريًّا لفعل كل الأشياء الممكنة.

في تلك اللحظة قال الرجل السوداني عَريض المنكبين: أستغفر الله العظيم، هذا يوم أسود.

أجابه رجل آخر في طرف الشارع، ولم يكن عريض المكبين، ولكنه كان مقبول الشكل: يبدو أن هذا اليوم سيكون باردًا للأسف الشديد.

قال عريض المنكبين، بَعد أن جثا على ركبتيه، وأظلم المكان حوله، ثم سُلطت عليه إضاءة خافتة فِي شكل حلقة، وقد كان المشهد دراميًّا للغاية: يعني لا توجد سخونة، لا توجد شمس تُسيح الدماغ؟ لا شتائم، سائق الحافلة لن يقول لسائق الركشة: اتعلمتها وين؟ يعني خلاص؟ لا يُوجد زهج اليوم، معقول؟ وسأكون مبتسمًا طوال وقت الدوام؟ وعندما أعود إلى البيت، عِندما أدخل من الباب لن أضرب ابني الصغير، ولن أجر زوجتي من شعرها؟

بكى الرجل السوداني عريض المنكبين كثيرًا، وأحس لأول مَرة منذ زمن، بالضياع والغربة داخل الوطن، وشعر بأن جوفه قد مزقته مُدية حادة، لذلك رقد في مكانه على الأرض، ثم بحلق نحو السماء، ومات.

حَر

الحر شديد، وكانت الجدة العجوز ترقد على السرير، ومن فوقها مروحة صغيرة تحاول جاهدة أن تُوفِّر بضع نسمات لجسدها النحيل.

وعندما توقفت المروحة عن الدوران الممل الذي اعتادته منذ أن رأت الكهرباء، أطلقت صرير الفرِح شاكرة الله على انقطاع الكهرباء.

ولكن الجدة النحيلة صاحت: يقطع رقبتكم يا ناس الكهربا.

ثم حشرت يدها تحت المخدة وأخرجت هبابة بلدية، وصارت تحركها ذات اليمين وذات الشمال، مستجدية بذلك نسمات الهواء الساكنة والساخنة.

وعندما عادت الكهرباء من جديد، وبدأت المروحة تدور في ملل واضح، وصريرٍ باكٍ، صاحت الجدة: الله يصرفكم يا ناس الكهربا. أول قاطعنها مالكم يقطع ضنبكن.

النهاية.